الفصل الثاني

الإيمان بالجن

الجن والشياطين في اللغة :-

١ - جنَّ : ستر . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ﴾ {الأنعام/٧٦}

والجانُّ : الجن. قال تعالى: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ ﴾{الرحمن}

والجانُّ : نوع من الحيَّات أكحل العينين ، يميل إلى الصفرة ، لا يؤذى . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ {النمل/ ١٠}.

ويُجمع على (جنان) وفى الحديث : « إن فيها جنانًا كثيراً » .

والجَنَان : القلب . وفى المثل : « إذا فرح الجَنان ، بكت العينان » .

والجِنُّ : خلاف الإنس . مفرده جِنِّيٌ وجنيَّة .

والجِنَّة : الجن . قال تعالى : ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾ { الناس }

والجُنَّـة : السُترة . قال تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ {المجادلة/١٦}

وفى الحديث : « الصوم جنة » .

والجَنَّة : كل بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾{الكهف/٣٩} .

والجَنين : الولد مادام فى بطن أمه . وجمعُه : أجنَّة. قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ﴾ {النجم/٣٢} .

والجنُّ يقال على وجهين :

أحدهما : بالمعنى العام المقابل للإنس . فيشمل كل المستترين عن الحواس من : جنّ ، وملائكة ، وشياطين . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾ {الأنعام/ ١٠٠} والمقصود الذين قالوا : الملائكة بنات الله .

والآخر : بالمعنى الخاص . فلا يشمل إلا الجنَّ فقط ؛ لأن الروحانيين المستترين عن الحواس ثلاثة : أخيار وهم الملائكة ، وأشرار وهم الشياطين ، وأوساط فيهم أخيار وأشرار . وهم الجن .

٢ – والشيطان مشتق من : شطن بمعنى : بَعُدَ ؛ لبُعده عن الخير . أو من: شاط يشيط بمعنى احترق غضباً ؛ لأنه مخلوق من النار .

وكل عاتٍ متمرد من الجنِّ ، والإنس ، والدواب يقال له : شيطان .

وقيل . إن خبث الجنىُّ ، فهو شيطان ، وإن زاد خبثه ، فهو مارد ، فإن زاد على ذلك وقوى ، فهو عفريت ، والجمع عفاريت .

٣ – وإبليس مشتق من الإبلاس ، وهو الحزن الشديد من اليأس . ليأسه من دخوله الجنة [١] .

الجن والشياطين فى القرآن الكريم:

ورد ذكر (الجِنِّ) فى القرآن الكريم ٢٢ مرة ، و (الجانّ) ٧ مرات ، و (الجِنَّة) ١٠ مرات .

وجاء ذكر (الشيطان) بالإفراد (٧٠) مرة، و(الشياطين) بالجمع (١٧) مرة.

وورد ذكر (**إبليس**) فى (١١) موضعاً .

وكلها تدور حول المعانى التى سبق ذكرها .

---

(١) انظر القاموس المحيط ، والوسيط ، ومفردات الراغب فى مواد : جنَّ ، وشطن ، وبلس

خلق الجن وطبيعتهم :

خلق الله الجنَّ من النار . كما ورد فى الحديث السابق : « وخُلِق الجان من مارج من نار » .

وقال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرحمن] والمارج : النار التى لا دخان لها .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحجر] .

فهى نار لا دخان لها ، تنفذ فى المسام .

وفى الآية دليل على تقدم خلق الجانِّ على الإنسان .

وخُلق إبليس من النار أيضًا : لأنه من الجن . كما قال تعالى : ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ {الكهف/ ٥٠} .

وقال على لسانه : ﴿ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ {ص/٧٦} .

ولم يبقَ الجن على طبيعتهم النارية ، كما لم يبقَ الإنس على طبيعتهم الترابية ، إنما صار الجنُّ أجسامًا لها طبيعة خاصة ، وقدرة على التشكل بأشكال مختلفة . فالجنىُّ له القدرة على الظهور فى صور متنوعة من إنسان ، أو حيوان ، أو نبات ، صغُر الشكل أو كبر ، وتحكمه الصورة التى يبدو فيها ، بمعنى أنه لو ظهر فى صورة إنسى . فقوته قوة رجل من الإنس ، وإن ظهر فى صورة كلب ، كانت قوته قوة كلب ، وإن ظهر فى صورة حيَّة ، كانت طبيعة الحيَّة تحكمه ... وهكذا .

ولكن الشيطان لا يستطيع أن يظهر فى صورة رسول الله ﷺ .

عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « من رآنى فى المنام : فقد رآنى. فإن الشيطان لا يتمثل بى »[١] .

والدليل على أن الجنى لم يبق على طبيعته النارية أن الرسول ﷺ أمسكه بيده ، وأراد أن يربطه فى أحد أعمدة المسجد ، حتى يراه المسلمون ، ويلعب به صبيانهم .

عن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ : « إنّ عفريتًا من الجن تفلّت البارحة ليقطع علىَّ صلاتى ، فأمكننى اللّه منه ، فأخذته ، فأردت أن أربطه على سارية من سوارىّ المسجد ، حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخى سليمان (رب هب لى ملكًا لا ينبغى لأحد من بعدى) فرددته خاسئًا »[٢].

وفى رواية : « واللّه لولا دعوة أخينا سليمان ، لأصبح موثقًا ، يلعب به ولدان أهل المدينة »[٣] .

وفى رواية : « حتى وجدت برد لسانه على يدى » .

وكذلك ظهر الجنى فى صورة رجل سارق ، وأخذه أبو هريرة ، وأمسكه ، ثم تركه .

عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : وكّلنى رسول اللّه ﷺ بحفظ زكاة رمضان ، فأتانى آتٍ ، فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته ، وقلت : واللّه لأرفعنَّك إلى رسول اللّه ﷺ قال : إنى محتاج ، وعلىَّ عيال ، ولى حاجة شديدة .

---

(١) رواه مسلم فى الرؤيا ٤/١٧٧٥
(٢) رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء - الفتح ٦/٥٢٧
(٣) رواه مسلم فى المساجد ١/٣٨٥

قال : فخليت عنه . فأصبحت فقال النبي ﷺ : يا أبا هريرة : ما فعل أسيرك البارحة ؟

قال : قلت يارسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالاً، فرحمته، فخليت سبيله.

قال : أما إنه قد كذبك وسيعود .

فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ : إنه سيعود : فرصدته ، فجعل يحثو من الطعام . فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ . قال دعني ، فإني محتاج ، وعليَّ عيال ، لا أعود . فرحمته ، فخليت سبيله ، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ : يا أبا هريرة ، ما فعل أسيرك ؟

قلت : يارسول الله ، شكا حاجة شديدة وعيالاً ، فرحمته ، فخليت سبيله.

قال : أما إنه قد كذبك ، وسيعود .

فرصدته الثالثة ، فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته ، فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ وهذا آخر ثلاث مرات . إنك تزعم : لا تعود ، ثم تعود .

قال دعني أُعَلِّمْك كلمات ينفعك الله بها .

قلت : ماهن ؟

قال : إذا أويت إلى فراشك ، فاقرأ آية الكرسيّ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ حتى تختم الآية . فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنَّك شيطان حتى تصبح . فخليت سبيله ، فأصبحت ، فقال لي رسول الله ﷺ : ما فعل أسيرك البارحة ؟

قلت : يارسول الله ، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله .

قلت : قال لى إذا أويت إلى فراشك ، فاقرأ آية الكرسى من أولها ، حتى تختم الآية ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ وقال لى : لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربنَّكَ شيطان حتى تصبح - وكانوا أحرص شيء على الخير .

فقال النبى ﷺ : أما إنه قد صدقك ، وهو كذوب . اتعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟

قال : كلا . قال : ذاك شيطان »[١]

وأما قوله تعالى :﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ ﴾ {الأعراف/ ٢٧} فالمقصود من حيث لا ترونهم على صورتهم الحقيقية : أما لو تمثَّلوا فى صور معينة ، فيمكن رؤيتهم ، كما فى هذين الحديثين .

والجن يأكلون ويشربون :

عن جابر بن عبد الله ، أنه سمع النبى ﷺ يقول : « إذا دخل الرجل بيته ، فذكر الله عند دخوله ، وعند طعامه . قال الشيطان : لا مبيت ، ولاعشاء ، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله ، قال الشيطان : أدركتم المبيت ، وإذا لم يذكر الله عند طعامه ، قال : أدركتم المبيت والعشاء »[٢]

وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه ، وإذا شرب فليشرب بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ، ويشرب بشماله »[٣] .

---

(١) رواه البخارى فى الوكالة ١٣٢/٣ . الفتح ٥٩٨/٤ يحثو : يقال : حثا يحثو ، وحثى يحثى: أخذ ملء يديه . لأرفعنك : أذهب بك أشكوك . وعلىَّ عيال : علىَّ نفقة عيال. ولى حاجة : وفى نسخة: (وبى حاجة) رصدته: رقبته وانتظرته . وكانوا : أى الصحابة . وفى الحديث دليل على أن الجنَّ يأكلون من طعام الإنس ، ويتكلمون بكلامهم ، ويسرقون منهم ، ويكذبون عليهم ، وفيه دليل على اطلاع النبى على المغيبات .

(٢) رواه الإمام مسلم فى الأشربة ١٥٩٨/٣ وقوله: (قال الشيطان) أى لإخوانه الشياطين.

(٣) رواه الإمام مسلم فى الموضع السابق .

والجن يتزوجون ، ويتناسلون :

وعندما تحدث القرآن الكريم عن نعيم الجنة قال : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الرحمن]

وعندما ذكر النفر الذين استمعوا للقرآن قال : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾ [الجن/٦] ، ووجود الرجال يستلزم وجود الإناث ، ويستلزم التناسل .

وعندما حذَّرنا من إبليس قال : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف] .

والجن مكلفون بعبادة الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات] .

وقد أرسل الله إليهم الرسل ، وختمهم بسيدنا محمد ﷺ . فهو رسول للإنس والجن . وقد تحدى بمعجزته الكبرى الإنس والجن .

قال تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء] .

وذلك بعد أن استمعوا له ، وعلموا أنه كتاب أنزل بعد توراة موسى قال تعالى :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأحقاف] .

وقد اجتمع بهم رسول الله ﷺ ، وإن كان لم يرَهم فى اللقاء الأول ، ولم يعلم بوجودهم . حتى أخبره الله ، وقد التقى بهم فى أكثر من مكان . ليعلمهم شرع الله .

وكان من عادة شياطين الجن أن يصعدوا إلى السماء ليستمعوا إلى الملائكة تتكلم ببعض ما يُوكل إليهم من أمور . ثم ينزل الشياطين إلى الكهَّان . فيخبرونهم بما سمعوا ، بعد أن يضيفوا إليه أخباراً كاذبة ، ليضلوا أتباع الكهان ، وعبدة الأصنام .

وشاء الله أن ينتهى هذا الوضع مع بعثته صلى الله عليه وسلم .

وتأمل ما جاء فى الحديث التالى بهذا الخصوص :

« عن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله ﷺ على الجنِّ ، وما رآهم . انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ : وقد حِيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسِلت عليهم الشُّهبُ . فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : مالكم ؟

قالوا : حِيل بيننا وبين خبر السماء ، وأُرسِلت علينا الشُّهُب .

قالوا : ما ذلك إلا من شىء حدث . فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ما هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء .

فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها فمرَّ النَّفَرُ الذين أخذوا نحو تِهامة ، وهو بنخل عامدين إلى سوق عكاظ ، وهو يُصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، وقالوا : هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء .

فرجعوا إلى قومهم ، فقالوا : إنا سمعنا قرآنًا عجبًا ، يهدى إلى الرشد ،

قلنا به . ولن نُشرِكَ بربنا أحداً ، فأنزل الله عز وجل على نبيه محمد ﷺ : « قل أوحى إلىَّ أنه استمع نفر من الجن »[1] .

وتحكى لنا سورة الجن تفاصيل هذا الحدث العجيب .

وعن عائشة قالت : قلت يارسول الله : إن الكهان كانوا يحدثوننا بالشيء نجده حقاً قال : « تلك الكلمة الحق يخطفها الجنى فيقذفها فى أذن وليه ، ويزيد فيها مائة كذبة »[2] .

ودعى رسول الله ﷺ مرة أخرى للاجتماع بهم .

عن عامر قال : سألت علقمة : هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجنّ ؟ قال : فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود ، فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجنّ ؟ قال : لا ولكننا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ، ففقدناه ، فالتمسناه فى الأودية والشِّعاب . فقلنا : استُطير، أو اغتيل . قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فلما أصبحنا : إذا هو جاءٍ من قبل حراء .

قال : قلنا يارسول الله ، فقدناك ، فطلبناك ، فلم نجدك ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم .

فقال : « أتانى داعى الجنِّ ، فذهبت معه ، فقرأت عليهم القرآن » .

---

(١) رواه الإمام مسلم فى الصلاة ١/٣٣١ وقوله : (عامدين) أى قاصدين ، وسوق عكاظ كانت تقام قريباً من عرفة بين مكة والطائف : مرة كل عام : تجتمع قبائل العرب ، فيتعاكظون ، أى يتفاخرون ويتناشدون ، وظلّت تقام إلى سنة ١٢٩ هـ ثم خرَّبها الخوارج ونهبوها. و (الشهب) جمع شهاب ، وهو شعلة النار (اضربوا مشارق الأرض ومغاربها) أى سيروا وابحثوا فيها كلها عن السبب . (وهو بنخل) أى وهو ﷺ فى هذا المكان : نخل أو نخلة

(٢) رواه الإمام مسلم فى السلام ٤/ ١٧٥٠

قال : فانطلق بنا ، فأرانا آثارهم ، وآثار نيرانهم . وسألوه الزاد .

فقال : « لكم كل عِظم ذكر اسم اللّه عليه ، يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحمًا ، و كل بعرة علف لدوابكم .فقال رسول اللّه ﷺ : فلا تستنجوا بهما ، فإنهما طعام إخوانكم » [١] .

وعن مَعْنٍ قال: سمعت أبى قال: سألت مسروقًا: مَن آذن النبى ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثنى أبوك -يعنى ابن مسعود- أنه آذنته بهم شجرة .[٢]

والجن يسكنون البر والبحر والجو :

ومنهم مَن يسكن مع بنى آدم فى بيوتهم ، ويُسَمَّون (العمار) أو (العوامر) ليس من حقهم أن يظهروا للإنس فى أية صورة من الصور وإلا استحقوا القتل بعد إنذراهم .

فعن أبى السائب مولى هشام بن زُهرة ، أنه دخل على أبى سعيد الخدرى فى بيته . قال : فوجدته يُصلى ، فجلست أنتظره ، حتى يَقضىَ صلاتَه ، فسمعت تحريكاً فى عراجين فى ناحية البيت . فالتفت فإذا حيَّةٌ ، فوثبتُ لأقتلها. فأشار إلىَّ : أن اجلس فجلستُ .

فلما انصرف ، أشار إلى بيت فى الدار ، فقال : أترى هذا البيت ؟ فقلت: نعم . قال : كان فيه فتى منَّا. حديث عهد بعُرس . قال : فخرجنا مع رسول اللّه

(١) رواه الإمام مسلم فى الصلاة ١/٣٣٢ والأودية : جمع واد وهو أرض بين جبلين تجتمع فيها السيول ، والشِّعاب : جمع شِعب ، وهو الطريق فى الجبل . (استطير) أى طارت به الجن، (اغتيل) أى قتل خفية وسراً .

(٢) رواه مسلم فى الموضع السابق . وقوله : (من آذن النبى) أى أعلمه بحضور الجنِّ ، وهى الشجرة أنطقها اللّه له . كما قال : « إنى لأعرف حجراً بمكة كان يُسَلِّم علىَّ قبل أن أبعث» مسلم ٤/١٧٨٢

ﷺ إلى الخندق . فكان ذلك الفتى يستأذن رسول اللّه ﷺ بأنصاف النهار، فيرجع إلى أهله . فاستأذنه يومًا فقال له رسول اللّه ﷺ : « خذ عليك سلاحك ، فإني أخشى عليك قريظة » .

فأخذ الرجل سلاحه ، ثم رجع ، فإذا امرأته بين البابين قائمة ، فأهوَى إليها الرمح ليطعنها به . وأصابته غيرة .

فقالت له : اكفف عليك رُمْحَك، وادخل البيت حتى تنظر ما الذى أخرجنى.

فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش ، فأهَوى إليها بالرمح ، فانتظمها به ، ثم خرج ، فركزه فى الدار ، فاضطربت عليه . فما يُدْرَى أيهما كان أسرعَ موتًا . الحية أم الفتى ؟

قال: فجئنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له. وقلنا : ادعُ الله يُحييه لنا .

فقال : « استغفروا لصاحبكم » ثم قال : « إن بالمدينة جنًا قد أسلموا ، فإذا رأيتم منهم شيئًا ، فآذِنوه ثلاثة أيام ، فإن بدا لكم بعد ذلك ، فاقتلوه ، فإنما هو شيطان »(1) .

وفى رواية : « إن لهذه البيوت عوامر . فإذا رأيتم شيئًا منها ، فحَرِّجُوا عليها ثلاثًا ، فإن ذهب ، وإلا فاقتلـوه ، فإنه كافر » وقال لهـم : « اذهبوا

---

(1) رواه الإمام مسلم فى السلام ١٧٥٦/٤ وأراد بالعراجين : الأعواد التى فى سقف البيت . وفى رواية : (إذ سمعنا تحت سريره حركة) وقوله : (أخشى عليك قريظة) أى يقتله يهود قريظة وقوله : (فآذنوه) أى أعلموه وأنذروه ، فإن لم يذهب علمتم أنه ليس من عوامر البيت المسلمين ، ويقول فى الإنذار : « أنشدكن بالعهد الذى آخذ عليكم سليمان بن داود أن لا تؤذونا ولاتظهرن لنا » وقال مالك يقول: « أُحَرِّج عليك بالله واليوم الآخر أن لا تبدوا لنا ولاتؤذينا » قيل: إن هذا الإنذار عام فى جميع حيَّات الأرض . وقيل : إنه خاص بحيَّات المدينة للسبب المذكور فى هذا الحديث ، وهو إسلام بعض الجن . بدليل حديث : « خمس يُقتلن فى الحلِّ والحَرَم» منها الحيَّات، ولم يذكر إنذاراً ، وحديث الحيَّة الخارجة بمِنى فإنه ﷺ أمر بقتلها ، ولم يذكر إنذاراً.

فادفنوا صاحبكم »[1] .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ إذا دخل الخلاء : قال : « اللهم إنى أعوذ بك من الخُبث والخبائث »[2] .

أى ذكران الجنّ وإناثهم . فالخبث جمع خبيث ، والخبائث جمع خبيثة .

والجن لهم قدرات فائقة :

قال تعالى : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النمل/٣٩]

وقال تعالى عن سليمان : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ص] .

وقال فى وصف أعمالهم له ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ/١٣]

المحاريب : الأبنية المرتفعة يُصعد إليها بدرج ، ولم تكن التماثيل محرمةً، والجفان : القِصَاع . والجوابى : أحواض الماء .

والجن يموتون ، ويبعثون ، ويدخلون الجنة أو النار :

قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ

---

(١) المرجع السابق وقوله : (فحرِّجوا عليه) أى قولوا للجنّ أنتم فى حرج أى ضيق إنْ عدتم إلينا فلا تلومونا إن ضيقنا عليكم بالتتبع والطرد والقتل .

(٢) رواه البخارى فى الدعوات - الفتح ١١/ ١٣٤ ومسلم فى الحيض ١/ ٢٨٣

أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا
قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟
كَٰفِرِينَ (١٣٠) ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ (١٣١)
وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) ﴾ { الأنعام } .

وقال سبحانه: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) ﴾
{ هود }

روى الحاكم عن جابر قال : قرأ علينا رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها. ثم قال : « ما لي أراكم سكوتًا ؟ للجن كانوا أحسن منكم ردًا . ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إلا قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب . فلك الحمد » .

وفي هذه السورة قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ﴾ { الرحمن } .

وجاء في سورة الجن : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) ﴾ { الجن } .

من أعمال الشيطان :

ذكر لنا القرآن الكريم أعمال الشيطان لنحذره ومن ذلك :

١ - الشيطان يُسوِّل ويُزيِّن :

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ { محمد/٢٥ } .
- ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾ { الأنعام } .

٢ - الشيطان يفتن ويوسوس :

- ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ [الأعراف] .

- ﴿ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا ﴾ [الأعراف] .

٣ - الشيطان يَعِدُ ويُمنّي :

- ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ ﴾ [البقرة/٢٦٨] .

- ﴿ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النساء] .

- ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الإسراء] .

٤ - الشيطان يُخوّف ويُضلّ :

- ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران] .

- ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [النساء] .

٥ - الشيطان ينزغ ويُنسي :

- ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الأعراف] .

- ﴿ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ ﴾ [المجادلة/١٩] .

٦ - الشيطان يَمَسّ ويؤذى :

■ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف] .

■ ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾

■ ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ [البقرة/ ٢٧٥] .

قال الإمام القرطبى عند تفسيره لهذه الآية الكريمة : (فى هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصرع من جهة الجن ، وزعم أنه من فعل الطبائع ، وأن الشيطان لا يسلك فى الإنسان ، ولا يكون منه مس)[١] .

ويقول الإمام الألوسى عن المس : (أصله اللمس باليد . وسُمى به ؛ لأن الشيطان قد يمسّ الرجل ، وأخلاطه مستعدة للفساد ، فتفسد ، ويحدث الجنون ، وهذا لا ينافى ما ذكره الأطباء ؛ لأن ما ذكروه سبب قريب : وما تشير إليه الآية سبب بعيد ، وقد يدخل فى بعض الأجساد على بعض الكيفيات ريح متعفن ، تعلقت به روح خبيثة تناسبه ، فيحدث الجنون ، وربما استولى ذلك على الحواس وعطلها ، واستقلت تلك الروح الخبيثة بالتصرف ، فتتكلم ، وتبطش ، وتسعى بآلات - أعضاء - ذلك الشخص الذى قامت به من غير شعور للشخص بشىء من ذلك أصلاً . وهذا كالمشاهد المحسوس . الذى يكاد يعد منكره مكابراً منكراً للمشاهدات)[٢] .

---

(١) تفسير القرطبى ص ١١٦٣ ط الشعب
(٢) روح المعانى بتصرف يسير ٤٩/٣ .

نصائح نبوية :

١ - عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر . إن الشيطان ينفِر من البيت الذى تُقرأ فيه سورة البقرة » [١] .

٢ - وعنه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك ، وله الحمد، وهو على كل شئ قدير. فى يوم مائة مرة ، كانت له عَدْلَ عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومَه ذلك ، حتى يُمسِى ، ولم يأتِ أحد بأفضلَ مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك » [٢] .

٣ - وعنه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يَعْقِدُ الشيطانُ على قافية رأس أحدكم ، إذا هو نام ثلاث عقد ، يَضرِب على كل عقدة مكانها : عليك ليل طويل فارقد . فإن استيقظ ، وذكر الله ، انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها ، فأصبح نشيطًا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » [٣] .

٤ - عن أبى العلاء أن عثمان بن أبى العاص أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنَّ الشيطان قد حال بينى وبين صلاتى وقراءتى يَلبسُها علىَّ . فقال رسول الله ﷺ : « ذاك شيطان يقال له : خِنْزَب . فإذا أحسسته ، فتعوذ بالله منه ، واتْفِل على يسارك ثلاثًا » قال : ففعلت ذلك ، فأذهبه الله عنِّى . [٤]

٥ - عن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إذا استجنح الليل -

---

(١) رواه مسلم فى صلاة المسافرين ٥٣٩/١ (ولا تجعلوا بيوتكم مقابر) أى بعدم صلاة النوافل فيها.

(٢) رواه البخارى فى بدء الخلق - الفتح ٣٩٠/٦

(٣) رواه البخارى فى بدء الخلق أيضًا- الفتح ٣٨٦/٦ ومسلم فى صلاة المسافرين٥٣٨/١.

(٤) رواه مسلم فى السلام ١٧٢٨/٤ (يلبسها علىَّ) أى يخلطها ويشككنى فيها.

أو كان جنح الليل - فكفوا صبيانكم ، فإنَّ الشياطين تنتشر حينئذ ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم ، وأغلق بابك واذكر اسم الله ، واطفىء مصباحك واذكر اسم الله ، وأوك سقاءك واذكر اسم الله ، وخمِّر إناءك واذكر اسم الله، ولو تعرض عليه شيئًا »[1] .

وفي رواية : « فإن الشيطان لا يفتح بابًا مغلقًا »[2] .

٦ – عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : « إذا نودى بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط ، فإذا قضى أقبل ، فإذا ثُوِّبَ بها أدبر ، فإذا قُضِىَ أقبل حتى يخطر بين الإنسان وقلبه . فيقول : اذكر كذا وكذا ، حتى لا يدرى أثلاثًا صلى أم أربعًا ؟ فإذا لم يَدْرِ ثلاثًا صلى أو أربعًا ، سجد سجدتى السهو »[3] .

٧ – عن أبي قتادة عن أبيه قال : قال النبى ﷺ : « الرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان ، فإذا حَلَمَ أحدكم حُلْمًا يخافه ، فليبصق عن يساره ، وليتعوذ بالله من شرها ، فإنها لا تضره »[4] .

٨ – عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن إبليس يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه ، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة ، يجىء أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا . فيقول : ما صنعت شيئًا . قال : ثم يجىء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فَرَّقت بينه وبين امرأته . قال : فيُدْنيه منه ويقول : نِعْمَ أنت » قال الأعمش : أراه قال : « فيلتزمه »[5] .

---

(١) رواه البخارى فى بدء الخلق - الفتح ٣٨٧/٦ (وأوك سقاءك) الوِكاء : رباط القربة . والمراد : تغطية الماء .

(٢) رواها البخارى فى بدء الخلق ايضًا - الفتح ٤٠٣/٦ .

(٣) رواه البخارى فى بدء الخلق - الفتح ٣٨٨/٦ ومسلم فى الصلاة ٢٩١/١ والمراد بالنداء : الأذان . والمراد بالتثويب : الإقامة .

(٤) رواه البخارى فى بدء الخلق - الفتح ٣٩٠/٦

(٥) رواه مسلم فى صفات المنافقين ٢١٦٧/٤ (يضع عرشه) أى سرير ملكه ، والمراد أن مركزه البحر . و منه يبعث (سراياه) أى جنوده إلى نواحى الأرض . (فأدناهم منه) أى أقربهم وأحبهم اليه من يفرق بين الزوجين . (يلتزمه) أى يعانقه ويحبه لكثرة شره . والعياذ بالله .

٩ - عن عروه أن عائشة روج النبى ﷺ حدثته ن رسول الله ﷺ حرج من عندها ليلاً قالت : فغِرْتُ عليه . فجاء فرأى ما أصنع فقال مالك يا عائشة ؟ أغرْت ؟ » فقلت : ومالى لا يغار مثلى على مثلك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أقد جاءك شيطانُك ؟ » قالت : يا رسول ، أو معى شيطان ؟ قال « نعم » قلت : ومع كل إنسان ؟ قال : « نعم » قلت : ومعك يا رسول الله ؟ قال : « نعم . ولكن ربى أعاننى عليه حتى أسلَمُ » .

وفى حديث اخر : « ما منكم من أحد إلا وقد وُكّل به قرينه من الجن » قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : « وإياى إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير »[١] .

وأجمع العلماء على عصمة النبى صلى الله عليه وسلم من الشيطان . فهذا الحديث تحذير للمسلم من فتنة القرين ، ووسوسته ، وإغوائه فأعلمنا أنه معنا لنحترز منه بحسب الإمكان .

١٠ - عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « أما إنّ أحدكم إذا أتى أهله . وقال : بسم الله . اللهم جنِّبنا الشيطان ، وجنِّب الشيطان ما رزقتنا ، فرزقا ولداً ، لم يضره الشيطان »[٢] .

عن مجاهد قال : « إذا جامع الرجل . فلم يُسم ، انطوى الجانُّ على إحليله، فجامع معه »[٣] .

وفى رواية عنه : « إن الذى يجامع ، ولا يُسمِّى . يلتفُّ الشيطان على إحليله ، فيجامع معه »[٤] .

(١) رواهما مسلم فى صفات المنافقين ٢١٦٨/٤ (أسلم) بفتح الميم أى اسلم القرين وآمن بالله . وبضم الميم أى فأسلمُ أنا من شره وفتنته
(٢) رواه البخارى فى بدء الخلق - الفتح ٣٨٦/٦
(٣) ذكره القرطبى فى تفسير قوله تعالى : (وشاركهم فى الاموال والأولاد) ص ٥ . ٣٩ وكذا الامام الألوسى - روح المعانى ١١٢/٨
(٤) ذكرها الإمام ابن حجر فى شرحه للحديث المذكور - الفتح ٣٧/٤

الفصل الثالث

الإيمان بالكتب السماوية

الركن الثالث من أركان الإيمان : أن يؤمن العبد بأن لله كتبًا أنزلها على رسله عليهم السلام . قيل إنها مائة وأربعة كتب ، لكن المذكور منها فى القرآن ما يلى : -

(١) **التوراة** : أنزلها الله على موسى : قال تعالى : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ﴾ (المائدة/٤٤).

وقال : ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ (الأنعام/٩١) .

(٢) **الإنجيل** : أنزله الله على عيسى: قال تعالى :﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾(المائدة).

(٣) **الزبور** : أنزله الله على داود عليه السلام : قال تعالى:﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ (الإسراء) .

(٤) **صحف إبراهيم وموسى** : قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ (الأعلى)

(٥) **القرآن الكريم** : وهو آخر الكتب نزولاً . لا كتاب بعده، لأنه لا نبى بعد سيدنا محمد ﷺ حيث خُتم به النبيون قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ {المائدة/٤٨}.

تحريف الكتب السماوية السابقة ونسخ القرآن لها :

لا وجود الآن للكتب السابقة على القرآن الكريم ، فقد ثبت تحريفها وضياعها. قال تعالى فى شأن التوراة :

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ { البقرة } .

وقال : ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ {النساء/٤٦} .

بل ثبت انها أُحْرِقت ، ولم تكن محفوظة فى الصدور ، ولا فى السطور فى مكان لم تمتد إليه يد البابليين الذين استولوا على القدس ، وقتلوا كثيراً من بنى إسرائيل .

كما أن التوراة الموجودة الآن فى يد اليهود ليست هى التوراة الموجودة فى أيدى النصارى . فضلاً عما تحويه التوراة من تطاول على ذات الحق جل فى علاه ، ووصف لأنبيائه بما لا يليق من الكذب ، والزنا ، وعبادة الأصنام .

فقد نسبت السُكر لنوح عليه السلام ، ونسبت السكر والزنا بالبنات للوط عليه السلام ونسبت الزنا بامرأة أوريا لداود عليه السلام بعد أن تخلص من زوجها.

وكذلك الحال بالنسبة للإنجيل . قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا

كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [المائدة] .

والأناجيل المتداولة الآن أربعة : إنجيل مرقص ، وإنجيل يوحنا ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل متّى . وهى منسوبة إلى مؤلفيها . وقد كتبت بعد المسيح ، وبينها من الاختلاف والفروق مالا يُحْصَى ، وقد اختيرت من نحو سبعين إنجيلا ، وفيها كلام عن سيرة سيدنا عيسى وصلبه وموته فى زعمهم. فكيف تكون الإنجيل الذى نزل عليه ؟

وكان من أهم ما حَّرفوه البشارات بسيدنا محمد ﷺ التى كانت سبباً فى إسلام كثير من النصارى فى العهد النبوى وبعده ، والتى حرصت الكنيسة على إخفائها تماماً . وأصدر البابا (جلاسيوس) سنة ٤٩٢م أمراً بتحريم قراءة بعض الكتب ، وكان من أهمها إنجيل (برنابا) أحد الحواريين ، وصودرت نسخ هذا الإنجيل من كل مكان ، لكن مكتبة البابا (سكتش) الخامس كان بها نسخة منه . عثر عليها الراهب (فرامينو) وكانت باللغة الإيطالية على الورق الإيطالى المعروف .

وفى هذا الإنجيل ما يدل على أن عيسى عليه السلام ليس إلا رسولاً من عند الله ، وأن الرسول المنتظر هو محمد ﷺ فقد جاء فيه هذا النص : «وسيبقى هذا إلى أن يأتى محمد رسول الله الذى متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله» وقد أعلن هذا الراهب إسلامه بعد اطلاعه على هذا الإنجيل ، ونشره، وقد عُثِرَ على نسخة آخرى اسبانية من هذا الإنجيل ، أوائل القرن الثامن عشر . وأخيراً تم اكتشاف بعض المخطوطات القديمة فى منطقة البحر الميت تؤكد صحة إنجيل (برنابا) وهذه المخطوطات موجودة بالأردن . وقد جاء فيها :«إن عيسى كان مسيا للمسيحيين ، وأن هناك مسيا آخر» أى رسولاً آخر وهو سيدنا محمد ﷺ .

وصدق الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ {الصف/٦} .

لذلك فإن القرآن قد نسخ كل الكتب السابقة، واشتمل على أهم ما فيها ، وعلى ما يصلح لكل زمان ومكان من عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات : قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ {الشورى/١٣} .

وقد تكفل الله بحفظه وصيانته: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ { الحجر } وقال : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ { فصلت } .

وقد نُقِلَ إلينا القرآن الكريم بالسند المتصل إلى رسول الله ﷺ ، وبالتواتر المفيد للعلم القطعى اليقينى ، ولا يوجد أدنى شك فى أن الذى نتلوه الآن هو ما كان يتلوه الرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عنهم .

إعجاز القرآن الكريم :

والقرآن هو الدليل على نبوة سيدنا محمد ﷺ . والدليل على أن القرآن من عند الله تحدى الرسولُ الإنسَ والجنَّ به ، وعدم قدرتهم على معارضته . والإتيان بمثله ، لقد تحداهم متدرجًا بهم من أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور ، أو بسورة واحدة ، فلم يستطيعوا :

(١) ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ { الإسراء } .

(٢) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [هود] .

(٣) ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة].

وهكذا ثبت أنه من عند الله جلت قدرته .

وقد وصف رسول الله ﷺ القرآن فقال :

« عليكم بكتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبَّار ، قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره ، أضله الله ، هو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم . هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا يشبع منه العلماء ، و لا يَخْلَق من كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه . من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن خاصم به أفلح ، ومن دعا إليه ، هُدِىَ إلى صراط مستقيم » رواه الترمذى.

أوجه إعجاز القرآن الكريم :

أولا - فصاحته وبلاغته :

فهو فى قمة الفصاحة ، وغاية البلاغة ، وتأمل كيف تأتى المعانى الكثيرة بألفاظ قليلة ، وتدبَّر جمال التشبيه والتصوير ، وحُسن المطالع والمقاطع ، وروعة التقديم ، والتأخير ، والتأكيد ، وخُلوه من الألفاظ الغثة والشاذَّة ، وبُعده عن التناقض والاختلاف .

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء].

ورغم نزوله خلال ثلاث وعشرين سنة حسب الدواعي والظروف ، وكان فصيحاً بليغاً معجزاً بحسب ترتيب هذا النزول ، فهو أيضاً فصيح بليغ معجز بحسب ترتيب تلاوته المغاير لترتيب نزوله . أليس هذا أمراً عجباً ؟!.

ثانياً - أثره فى النفوس :

تأمل مايحدث عند تلاوته من خشية ، وعند سماعه من هيبة ، وعدم السآمة أو الملل من قراءته وإعادته ، وكيف ترقُّ له القلوب ، وتنجذب إليه النفوس .

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ {الحشر/٢١} .

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ {الزمر/٢٣} .

والمشركون من أهل مكة رغم رفضهم للحق ظلماً وعلواً ، وعناداً واستكباراً ، كانوا إذا أقبل الليل ، يخرجون مستخفين ، ليستمعوا إليه مرتلاً من أفواه المؤمنين فى السَّحر رغم تواعدهم على ألا يفعلوا ، كى لايتأثروا ، ورغم منعهم رسول الله ﷺ من أن يقرأه فى منتدياتهم وأسواقهم ، حتى لا تنفعل به العرب ، وتحذيرهم لأبى بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه أن يرتله فى صلاته فى فناء بيته كى لايجتمع عليه الناس ! ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ { فصِّلت } .

ولنتذكر موقف (الوليد بن المغيرة) وتأثره بالقرآن ، وشهادته له فيما حكاه القرآن الكريم فى سورة (المدَّثِّر) .

وكذلك قصة إسلام (عمر بن الخطاب) رضى الله عنه .

وبكاء (النجاشى) عندما استمع لصدر سورة (مريم) يرتلها (جعفر بن أبى طالب) رضى الله عنه .

ثالثاً - وفاؤه باحتياجات الخلق :

بما اشتمل من عرض للعقيدة الصحيحة ، وإبطال للعقائد الباطلة ، وبما حوى من بيان للعبادات التى تُقرِّب العبد من ربه ، وبما ضمَّ من قواعد أخلاقية لازمة لحياة البشرية حياة هانئة فاضلة ، وبما جاء فيه من تشريعات اجتماعية ، واقتصادية ، وسياسية ، تحقق العدل للفرد ، وللمجتمع الدولى كله .

وقد دلَّ تطبيقه العملى على هذا الإعجاز الحقيقى الواقعى .

رابعاً - إخباره عن الغيب :

١ - فمن أمثلة الغيب الماضى :

أ) قصة نوح التى جاء فيها : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود] .

ب) وقصة موسى. وجاء فيها : ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص] .

جـ) وقصة مريم. وجاء فيها : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران]

٢ - ومن أمثلة الغيب الحالى :

ما ذكره عن عالم الملائكة ، وعالم الجن ، وما نزل فى شأن المنافقين من آيات كشفت عن نواياهم ، وفضحت أساليبهم .ومثل إخباره عن بعض المشركين بأنهم لن يؤمنوا . كأبى لهب قال تعالى : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ ﴾ [المسد] .

وكالأخنس بن شريق الذى نزل فيه : ﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ﴾ { الهمزة } .

والوليد بن المغيرة الذى نزل فيه : ﴿ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ ﴾ { المدثر } .

وقد مات الثلاثة كفاراً .

٣ - ومن أمثلة الغيب المستقبل :

أ - ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٍ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٤ ﴾ {البقرة} .

ب - ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ ﴾ { البقرة/١٤٢ } .

جـ - ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ ﴾ {الروم/٢-٤} .

د - ﴿ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ ﴾ {القصص/٨٥} .

هـ - ﴿ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ ﴾ {الفتح/٢٧} .

الفصل الرابع

الإيمان بالرُسل

حكمة إرسال الرسل :

خلق الله الإنسان ، وجعله خليفته فى الأرض ، وسيداً لهذا الكون ، فسخَّر له ما فى السماوات والأرض ، وحباه بنعمة العقل ؛ ليميز به الخير من الشر ، وأودع فيه من الغرائز والقوى ما يدفعه إلى العمل لإشباعها ، مما يؤدى إلى ظلمه وجوره ، واعتدائه على حقوق غيره .

ولا يستطيع الإنسان أن يعيش وحده ، ولا أن يصنع كل ما يحتاج إليه فى معيشته ، بل لابد أن يحيى مع بنى جنسه ، يأخذ ويعطى ، وهذا يحتاج إلى قواعد تضبطه ، وإلا لطغى القوى على الضعيف ، ولايمكن الاحتكام إلى العقل البشرى ؛ لأن العقول قاصرة وعاجزة . فقد يستقبح جماعة فعلاً يستحسنه آخرون ، بل الإنسان الواحد قد يستحسن شيئًا فى وقت ، ويستقبحه فى وقت آخر ، فلا يمكن الاحتكام إلى مجرد العقل .

كما أن الإنسان لم يخلق لهذه الحياة القصيرة الفانية، بل لحياة أبدية باقية، أعد الله فيها دار نعيم للمؤمنين ، ودار جحيم للكافرين ، فهو فى حاجة إلى من يبين له العبادات التى تُقرِّبه من المعبود ، والمحرمات التى تبعده عنه .

من هنا كانت حكمته تعالى فى أن يتفضل بإرسال الرسل : ليبينوا للخلق ما يصلح لدنياهم وآخراهم ، ولا يكون لهم عذر . كما قال تعالى :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء].

وقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [طه] .

اتفاق واختلاف الرسالات :

وقد اتفقت دعوة الرسل فى أصول الدين ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل/٣٦] . وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء] وقال عليه السلام :

وقال ﷺ : « الأنبياء إخوة لعلاَّت : أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد »[1].

واختلفت بعض الشرائع عن بعض فى مسائل من التشريعات الفرعية من الحلال والحرام ، وبعض العبادات من الصلاة والصيام ، لتتناسب مع ظروف كل مجتمع ، وليكون فيها اختبار وابتلاء من الله عز وجل . قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة/٤٨] .

قال عيسى : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾[آل عمران/٥٠] ، فقد حرم الله عليهم بعض الطيبات لظلمهم كالسمك والشحم. وجعل تطهير الثوب بقطع ما تنجس منه ومن أراد التوبة فعليه ان يقتل نفسه .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة/٥٤] .

وقال ﷺ : «وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لنبى قبلى » .

---

(١) رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء - الفتح ٦/٥٥١ والعلات : الضرائر . وفى رواية له : «أولاد علات» وهم الإخوة لأب ، وأمهاتهم مختلفة .

تعريف الرسول والنبى والفرق بينهما :

الرأى الأول :

الرسول : إنسان ذكر حر أوحى اللّه إليه بشرع وأمره بتبليغه .

والنبى : إنسان ذكر حر أوحى اللّه إليه بشرع ، ولم يؤمر بتبليغه .

فلابد أن يكون الرسول أو النبى من البشر ، وليس ملكًا أو جنيًا ، حتى يمكن مخاطبته . وقد ردَّ اللّه على الذين أنكروا أن يكون الرسول بشراً ، وزعموا أنه لابدَّ أن يكون ملكًا ، فقال : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝ ﴾ [الأنعام] .

ولابدَّ أن يكون الرسول ذكراً ؛ لأن الأنوثة لاتناسب وظيفة الرسول الذى يقوم بدعوة الناس إلى الدين ، وهناك من زعم أن مريم ، وآسيا ، وأم موسى ، وهاجر ، كن أنبياء على أن اللّه أوحى إليهن ، ولكن الآية تقول : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف/١٠٩] فأثبتت الرسالة للرجال .

وطبيعة المرأة لا تناسب مهمة الرسول ، وسبق أن الوحى يستعمل بمعنى الإلهام .

وعلى هذا الرأى الفرق بين الرسول والنبى هو التبليغ ، فالرسول مأمور بالتبليغ والنبى ليس مأموراً بالتبليغ . ويكون نبينا ﷺ قد نُبِّأ بـ ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق/١] وأرسل بـ ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ ﴾ [المدثر] .

الــــرأى الثانـى :

الرسول : هو من بعثه الله بشرع جديد ، يجهله المرسل إليهم ، ولا يعرفونه.

والنبى : هو من بعثه الله لتقرير شرع سابق ، يعرفه المرسل إليهم ، ولا يلتزمونه . فوظيفته تذكيرهم به ، ودعوتهم لامتثاله ؛ لأنهم يعلمون أنه حق . ويكون هو قدوة طيبة لهم .

فمهمة الأنبياء أشبه بمهمة علماء أمة سيدنا محمد ﷺ كما ورد فى حديث : « العلماء ورثة الأنبياء » .

والمتأمل فى استعمال هذين اللفظين (الرسول والنبى) فى القرآن يجد أنهما إذا اجتمعا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعا .

أى إذا اجتمعا فى آية واحدة ، كان لكل منهما معناه الخاص به . كما فى قولـه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ {الحج/٥٢} .

فهنا الرسول مغاير للنبى .

أما إذا افترقا ، فورد أحد اللفظين فى الآية دون آخر ، كان كل منهما بمعنى الآخر، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾{التغابن/١٢}.

وقوله :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾{الأحزاب/٤٥}.

فهنا الرسول مرادف للنبى .

عدد الرسـل والأنبياء وأولو العزم منهم :

أورد القرآن الكريم أسماء عدد من الرسل والأنبياء ، وجاء قوله تعالى : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ {النساء/١٦٤} مما يدل على أن عددهم أكثر مما ورد فى القرآن .

والمذكورون فى القرآن الكريم خمسة وعشرون. جمعهم أحد العلماء فى قوله:

في تلك حجتنا منهم ثمانية ** من بعد عشر ويبقى سبعة وهمُ
إدريس هود شعيب صالح وكذا ** ذو الكفل آدم بالمختار قد خُتموا

قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) ﴾ [الأنعام]

وأولو العزم من الرسل خمسة ذكروا فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٧) ﴾ [الأحزاب] وقوله سبحانه : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى/١٣] .

صفات الرسل وعلاماتهم :

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) ﴾ [الحج] ويقول : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام/١٢٤] ويقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ﴾ [آل عمران] .

---

(١) المسند ٥/ ٢٦٥ الحلية ١/ ١٦٧ مجمع الزوائد ١/ ١٦٠ وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات.

الرسل بشر تعتريهم الأحوال البشرية من اللذة والألم ، والصحة والمرض[1] . والاحتياج إلى الطعام والشراب ، والزواج والأولاد ، ويموتون كما يموت البشر ، وفى هذا كله تنبيه لمن تُسَوِّل له نفسه أن يُؤَلِّه نبيًا ، أو يعبد رسولاً .

وقد اختارهم من يعلم خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور ، فأدَّبهم فأحسن تأديبهم ، ومنحهم أفضل ما يمنحه البشر ، وأوجب لهم كل كمال بشرى ، ونزههم عن كل نقص بشرى .

وفيما يلى نعرض بعض صفاتهم وعلاماتهم :-

أولاً - العصمة :

وهى حفظ الله ظواهر الأنبياء وبواطنهم عن فعل المنهى عنه .

وأما الصغائر ، فقد اختلف العلماء فيها :

فرأى بعضهم أن الأنبياء ربما ألَمَّ بعضهم بشىء منها بطريق النسيان ، أو التأويل ، أو الخطأ ، لكن الله لا يُقرهم عليها . بل يُنَبِّههم ، ويستغفرونه تعالى ، فيكون ذلك سببًا فى رفع درجاتهم ، وتعليم أممهم .

وذهب بعض العلماء إلى عصمتهم عن الصغائر أيضًا . وما ورد عنهم من باب ترك الأولى ، وترك الأولى ليس صغيرة .

وإنما وجب عصمتهم ؛ لأن الله جعلهم أسوة حسنة ، وقدوة عملية لأقوامهم، وأمر باتباعهم فيما يقولون ويفعلون. قال تعالى:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ

(١) ومن أنواع المرض : السحر الذى يكون تأثيره على البدن فقط . كما حدث لنبينا ﷺ عندما رُبط عن أهله ، فكان يرى انه يقدر على مباشرتهن كعادته ، لكنه لا يستطيع بسبب السحر والحديث فى البخارى . واما السحر الذى يكون تأثيره على القلب والعقل ، فيتخيل أموراً لا حقيقة لها فهذا النوع مستحيل على الرسل ؛ لانه يتنافى مع هدف الرسالة . وهذا النوع هو مقصود المشركين عندما قالوا (إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً) [الاسراء/٤٧] .

﴿ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء].

وقال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب].

وقال: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر/٧].

وتشمل العصمة الصدق، فقد عصمهم الله عن الوقوع فى الكذب. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحاقة]

وقال عن سيدنا محمد ﷺ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [النجم].

والله سبحانه لايُؤيد من يكذب عليه، بل يُظهر كذبه، ويفضحه، وينتقم منه. هكذا جرت سنته فى كونه جل فى علاه.

والمقصود بالصدق: مطابقة الخبر للواقع بحسب الاعتقاد.

فعندما سلَّم الرسول ﷺ بعد ركعتين فى صلاة رباعية، وقال له (ذو اليدين): أقُصِرَتْ الصلاة، أم نسيت يارسول الله؟ فقال: «كل ذلك لم يكن» كان قوله هذا صدقًا بحسب اعتقاده. فهو معتقد أنه أتمَّ الصلاة.

وتشمل العصمة التبليغ. أى توصيل كل ما يُوحَى إليهم إلى الناس فهم معصومون من الخطأ فيه، أو حجب شئ منه قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التكوير]. أى بخيل مقصر فى تبليغه.

ولو كتم النبى شيئًا ، لكتم آيات العتاب ، مثل قوله تعالى :

- ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ٢ ﴾ [عبس] .
- ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة/٤٣]
- ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب/٣٧]
- ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنفال/٦٧].

ثانيًا - الفطنة :

وهى الفهم والذكاء والتيقظ لأساليب المجادلين، وإبطال دعواهم الفاسدة ، وإلزامهم الحجة ، والفطنة أو الفطانة من ألزم الصفات للأنبياء والرسل ؛ لأن مهمتهم نشر الدعوة ، وتبليغ الرسالة ، وإبطال العقائد الباطلة ، وغرس العقائد الصحيحة ، وكل ذلك يحتاج إلى الذكاء والتيقظ .

قال تعالى حكاية عن قوم نوح : ﴿ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢ ﴾ [هود] .

وقال عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ٨٣ ﴾ [الأنعام] .

وتأمل محاجة إبراهيم عليه السلام للنمرود عندما قال له : ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ فلم يفهم ذلك لغبائه ، فانتقل إبراهيم إلى أمر أبين وأوضح. قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨ ﴾ [البقرة] .

وتأمل محاجته لعباد الأصنام عندما قال

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنبياء] .

ودعا موسى ربه قائلا : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ ﴾ [طه]

وأمر خاتم النبيين أن يجادلهم بالحسنى فقال: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل/١٢٥] .

ثالثًا – ومن علاماتهم: أن يكونوا ذوى حسب فى قومهم، وفى الحديث الصحيح قال ﷺ : « ما بعث الله نبيًا إلا فى منعة من قومه » .

وقال تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ [هود/٩١]

ولتتذكر موقف أبى طالب مع النبى صلى الله عليه وسلم .

وعندما سأل هرقل أبا سفيان عن رسول الله ﷺ : كيف هو فيكم ؟ قال : هو فينا ذو حسب : قال هرقل : وكذلك الرسل تُبعث فى أحساب قومها . ومعناه : أن تكون له عصبة وشوكة تمنعه من أذى الكفار حتى يبلغ رسالة ربه.

رابعًا – ومن علاماتهم : أن يكون لهم خلق الخير والفضيلة ، والطُّهر والعفاف ، والتنزه عن المصالح الشخصية ، والأغراض الزائلة . وقد استدلت خديجة رضى الله عنها بذلك على نبوته ﷺ حين قالت له : « كلا والله لا يُخزيك الله أبداً : إنك تصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكلَّ ، وتُقْرِى الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق » رواه البخارى .

ولما سأل هرقل أبا سفيان : فهل يغدر ؟ قال أبو سفيان : لا . قال هرقل: وكذلك الرسل لاتغدر .

وعندما سأله : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان .لا . قال : لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله .

وقد صانه الله قبل الوحى عن عادات الجاهلية . ففى الصحيح أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة ، فجعلها فى إزاره ، فانكشف، فسقط مغشياً عليه ، حتى استتر بثوبه . ودُعى إلى وليمة فيها عرس ولعب، فأصابه غشى النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئًا من شأنهم ، وقد اشتهر قبل البعثة بالصادق الأمين .

وحكى القرآن قول نوح لقومه : ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ {هود/٥١}

وكذلك قال رسولنا : ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ {الشورى/٢٣}

وعندما اجتمع أشراف مكة به ﷺ عند الحِجْر بالمسجد الحرام وقالوا له : إن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً ، جمعنا لك من أموالنا ، حتى

تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا ، فنحن نُسَوِّدُك علينا ، وإن كنت تريد به مُلكًا ، ملَّكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيكَ رَئِيًا تراه - أى جنيًا - قد غلب عليك. بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نُبرئك منه.

قال لهم رسول الله ﷺ : « ما بى ما تقولون . ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً ، وأنزل علىَّ كتابًا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا ما جئتكم به ، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىَّ ، أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بينى وبينكم » .

ويقول لأصحابه : « مالى وللدنيا » .

ويقول : « عُرِضت علىَّ الدنيا فأبيتها » .

خامسًا - ومن علاماتهم : أن توجد لهم حال الوحى غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط . كأنها غشى أو إغماء ، وليست كذلك ، وإنما هو استغراق فى لقاء الملك الروحانى بإدراك يناسب ذلك ، لا يدركه سائر البشر ، وذلك بسماع دوىّ من الكلام فيتفهمه ، أو يتمثل له فى صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله ، ثم تنجلى تلك الحال وقد وعى ما ألقى إليه من الوحى .

قال صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الوحى : « أحيانًا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىَّ ، فيَفْصِم عنّى ، وقد وعيت ما قال ، وأحيانًا يتمثل لى الملك رجلاً ، فيكلمنى فأعى ما يقول » . ويدركه أثناء ذلك من الشدة والعناء مالا يُعَبَّرُ عنه . ففى الحديث : «كان مما يعالج من التنزيل شدِةً»

وقالت عائشة : « كان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا » .

وقال تعالى : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل] .

ولأجل هذه الحال فى نزول الوحى كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون ، ويقولون له رئى أو تابع من الجن ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٣﴾ [الرعد] .

سادسًا - ومن علاماتهم : دعاؤهم إلى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة والصلة .

وقد سأل هرقل أبا سفيان : بِمَ يأمركم ؟

فقال أبو سفيان : بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف .

فقال : إن يكن ما تقول حقًا ، فهو نبىٌ ، وسيملك ما تحتى قدمىَّ هاتين.

وعندما سأل النجاشى سيدنا جعفر بن أبى طالب - رضى اللّه عنه - لَّما هاجر إلى الحبشة : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ؟

قال : أيها الملك ، كنا قومًا أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونُسىء الجوار ، ويأكل القوىُّ فينا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث اللّه إلينا رسولاً منَّا . نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى اللّه . أمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكفِّ عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة .

وأمرنا أن نعبد اللّه وحده ، ولانشرك به شيئًا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام (وعدد عليه أمور الإسلام) فصدَّقناه ، وآمنا به ، فعدا علينا قومنا فعذبونا ، فلما قهرونا خرجنا إلى بلادك .

ولما قرأ عليه صدراً من سورة (مريم) بكى النجاشى ، ثم قال : (إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة) .

سابعًا - ومن علاماتهم: أن يتبعهم فى أول أمرهم ضعفاء القوم. قال قوم نوح له ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ {هود} .

ثم يزداد عدد المؤمنين ، ولا يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه إذا خالطت بشاشة الإيمان قلبه.

قال هرقل لابى سفيان: (وسألتك أشراف الناس اتبعوه ، أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل. وسألتك : يزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون . وكذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألتك : أيرتد أحد سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت : أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب) .

ويحدث القتال بين الرسل وأتباعهم ؛ وبين الكافرين المعاندين ، وتكون الحرب دولاً : ينتصر هؤلاء مرة ، وأولئك مرة . ثم ينصر اللهّ المؤمنين فى النهاية ويُمكّن لهم ، ويُهلك أعداءهم .

قال هرقل : سألتك كيف كان قتالكم أياه ؟

فزعمت أن الحرب سِجال ودول . فكذلك الرسل تُبْتَلَى، ثم تكون لهم العاقبة .

ثامنًا - ومن علاماتهم : ظهور المعجزات على أيديهم شاهدة بصدقهم، وهى الآيات التى يمنحها الله لهم مؤيدة لنبوتهم ، لايقدر على مثلها إنس ولا جن[1] .

---

(١) انظر : (الإسلام والعقل) للدكتور عبد الحليم محمود ص ١٠٤ وما بعدها .

وآية النبى أو معجزته هى الأمر الخارق للعادة الذى يُظهره الله على يد النبى مصدقًا له فى دعوى النبوة .

وهذا الأمر الخارق إما أن يكون قولاً : كالقرآن الكريم ، أو فعلاً ، كانقلاب العصا حية ، أو تركًا ، كعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم .

وقد تظهر الأمور الخارقة للعادة على يد غير الأنبياء ، فلا تُسَمَّى آيات، ولا معجزات . وفيما يلى بيان لها :-

(١) **الكرامة** : هى الأمر الخارق للعادة الذى يكرم الله به أحد أوليائه الصالحين .

(٢) **المعونة** : هى الأمر الخارق للعادة يمنحه الله لمستور الحال عندما يقع فى شدة .

(٣) **الاستدراج** : هو الأمر الخارق للعادة الذى يظهر على يد الفاسق أو الكافر على وفق مراده كالخوارق التى ستظهر على يد (الدجال) فى آخر الزمان .

(٤) **الإهانة** : هى الأمر الخارق للعادة الذى يظهر على يد الفاسق أو الكافر على عكس مراده تكذيبًا له فى دعواه ، كما حدث لمسيلمة الكذَّاب عندما أراد أن يفعل كرسول الله ﷺ فتفل فى عين عوراء ، فعميت السليمة.

(٥) **الإرهاص** : هو الأمر الخارق للعادة الذى يظهره الله على النبى قبل بعثته تأسيسًا للنبوة ، ولفتًا لأنظار قومه إليه وتوجيهًا لقلوبهم نحوه . كإظلال الغمام لنبينا ﷺ .

وآيات الأنبياء قد يختص ببعضها بعضهم ، وقد يوجد بعضها لجميعهم . فالعصا ، وفرق البحر ، واليد لموسى ، لم يكن مثل ذلك لغيره .

وخروج ناقة من الأرض ، لم يكن لغير صالح .

وطاعة الجن والطير وتسخير الريح لم يكن لغير سليمان .

وانشقاق القمر ، ونزول القرآن ، وتفجير الماء من بين الأصابع ، وغير ذلك من الآيات لم يكن لغير سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

أما إحياء الموتى ، والإخبار بالغيب ، فقد اشترك فيه كثير من الأنبياء وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « ما من نبى من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيًا أوحاه الله إلىَّ ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابعًا يوم القيامة » .

شبهات حول عصمة الأنبياء :

هناك آيات قرآنية ربَّما أوهَمَ ظاهرها عدم عصمة الأنبياء ، وأنهم ارتكبوا المنهى عنه . لكننا إذا تأملناها ، وجدناها خلاف ذلك . ولنذكر بعض الأمثلة:

١ - فى حقِّ آدم عليه السلام :

قال تعالى : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ {طـه} .

وهذا النَصُّ القرآنى يجب أن يفهم فى ضوء نصٍّ قرآنى آخر سبقه ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ {طه}.

فقد كان نسياناً ، والناسى لاشىء عليه . كالصائم يأكل أو يشرب ناسياً ، وقد أكَّد ذلك بقوله : ﴿ولم نجد له عزماً﴾ ! .وفيه تعليم للبشر . فمن عصى لجأ للتوبة.

وقد كان ذلك قبل النبوة ؛ إذ لـم تكن له حينئذ أمَّة . وبدليل قوله : ﴿ ثم اجتباه ﴾ أى اختاره للرسالة .

وسُمِّىَ عصياناً لمكانة آدم عند الله ، فقد خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته .

٢ - فى حق إبراهيم عليه السلام :

فقد قال : ﴿ هذا ربى ﴾ لكل من الكوكب ، والشمس ، والقمر .

لكننا إذا رجعنا إلى الآيات من سورة [الأنعام/٧٤-٨٣] وجدناها مناظرة علمية قيِّمة ، بينه وبين قومه . يفترض فيها خليل الله الاحتمال الباطل ، ليثبت فساده ، ويُدلِّل على وجود الإله الحق ووحدانيته وكماله .

وهذا هو المقصود من قوله تعالى : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الصافات] .

فالنظر فى النجوم للاستدلال بها على صفات الله مطلوب ، والمُحرَّم النظر فيها مع الاعتقاد بأنها المدبِّرة للكون .

وقوله : ﴿ إنى سقيم ﴾ أى من الحزن على قومه لإبائهم الحق .

وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنبياء] أراد به تنبيههم إلى أن الأصنام لا تسمع ، ولا تنطق ، فلا تصلح للألوهية.

وقوله لزوجه (سارة) عند ذهابها إلى الملك الجبار : « إن سألك فأخبريه إنك أختى » فليس كذبا ؛ لأنها أخته فى الإسلام .

٣ - فى حقِّ يوسف عليه السلام :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا ﴾ [يوسف/٢٤] .

هذا الهمُّ هو الميل الطبيعى لدى كل بشر سوىّ ؛ إذ لو جرَّدنا يوسف عن طبيعته البشرية ، ما كان له فضل فى عدم ارتكابه للمعصية مع وجود الرغبة، والقدرة ، والظروف المهيأة ، ومع ذلك (استعصم) كما اعترفت هى بذلك .

وهذا الهمُّ لا يؤاخذ عليه الإنسان [1] (مَن همَّ بسيئة فعملها ،كتبت له سيئة

---

(١) أنواع القصد خمسة ، لا يعاقب الإنسان الإعلى النوع الأخير منها وهو العزم . وهاك هى :

مراتب القصد خمس : هاجس ذكروا ... فخاطر ، فحديث النفس ، فاستمعا

يليه همٌّ ، فعزم . كلها رُفعت ... سوى الأخير . ففيه الأخذ قد وقعا

واحدة، ومن همَّ بسيئة، فلم يعملها، كُتِبتْ له حسنة)[1] فهذا الموقف يُحسب [illegible] وكان قبل النبوة لا بعدها .

٤ - فى حقّ موسى عليه السلام :

قال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ [القصص] .

وإذا تأملنا هذا النص ، لاحظنا أمرين :

الأمر الأول : أن تصرف موسى عليه السلام هو من قبيل دفع الصائل، وإغاثة الملهوف، ورفع الظلم عن المظلوم، وهذا لا إثم فيه ، بل هو واجب فى الشرائع .

الأمر الثانى: معنى قوله تعالى: ﴿ فوكزه موسى ﴾ أى ضربه بكفه على [illegible] وهذه الضربة ليست قاتلة . فمن مات منها ؛ فلأن ذلك قد وافق أجلَه، ويكون موته من قبيل القتل الخطأ الذى لايؤاخذ عليه فاعله، طالما حَسُنت نيته، وسلم قصدُه ،كما أنه كان قبل بعثته بدليل قوله تعالى :﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الشعراء] . ومع ذلك فقد استغفر موسى ربه تواضعاً منه مع الله تعالى.

٥ - فى حقّ داود عليه السلام :

قال تعالى : ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾

(١) رواه الإمام مسلم فى الإيمان ١١٨/١

وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ۞

{ص} .

إذا تأمَّلنا هذه الآيات ، وجدنا قوله تعالى : ﴿ وظنَّ داود أنما فتناه ، فاستغفر ربه ، وخرَّ راكعاً وأناب ﴾ جاء وسط ثناء من اللّه على داود ، فقد وصفه بعدة صفات تقدَّمت هذه الآية ، وهى : الصَّبر ، والعبودية ، والقوة فى الدين والبدن ، والرجوع إلى اللّه فقد كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ويقوم ثلث الليل ، وتسخير الجبال ، والطير ، وقوة المُلك ، والنُّبوة ، وفصل الخطاب . ثم جاء بعد هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وإنَّ له عندنا لزلفى وحُسن مآب ﴾

فى هذا الجو من الثناء والمدح لداود نستطيع أن نفهم القصة :

إن داود ملِك له سلطان ، وله أعداء ، وكان قد قسَّم وقته بين سياسة المُلك ، وبين عبادة اللّه فى محرابه الخاص به ، وفوجىء أثناء عبادته ببعض أعدائه ، يقتحمون عليه مكان عبادته ، وكان من عادة بنى إسرائيل قتلُ الأنبياء ، فلمَّا وجدوه مستيقظاً ، اختلقوا هذه القصَّة التى ذكروها ، وتمالك داود أعصابه ، واستمع منهم ، وحكم فى القضية ، ولم يُنفِّذ ما همَّ به من إنزال العقوبة اللائقة بهم لتهجمهم عليه ، وترويعهم له ، بل إنه استغفر ربَّه لما هَمَّ به وعزم عليه .

هذه هى القصة ، وليس فيها شىء ينافى العصمة .

٦ - فى حق سليمان عليه السلام :

قال تعالى : ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب
(٣٠) إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد (٣١) فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي
حتى توارت بالحجاب (٣٢) ردوها علي فطفق مسحا بالسوق والأعناق (٣٣) ولقد فتنا
سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب (٣٤) قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا
ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب (٣٥) فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث
أصاب (٣٦) والشياطين كل بناء وغواص (٣٧) وآخرين مقرنين في الأصفاد (٣٨) هذا
عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب (٣٩) وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب (٤٠) ﴾ [ص].

نبى الله سليمان كان محباً للجهاد فى سبيل الله ، شديد العناية بوسائله التى أهمها فى عصره (الخيل) فكان مهتماً بعنايتها ورعايتها ، وأمر قواده ذات يوم باحضارها لتفقدها ، وأخذ يستعرضها ويقول : إنى أحببتها ، وحُبُها من ذكر ربى : لأنه عمل يُتقرب به إليه ، حتى توارت الخيل عن بصره لكثرتها البالغة ، فطلب أن يُعيدوها عليه مرة أخرى لمزيد الاطمئنان على قوتها ولياقتها للغزو ، وأخذ يمسح بيده سُوقها وأعناقها تكريماً لها ، وإعجاباً بقوتها .

فالمسح هنا مثل المسح فى قوله تعالى : ﴿ وامسحوا برءوسكم ﴾ [المائدة/٦] إذ ليس المراد قطع الرءوس فى الوضوء [١] .

ولقد اختبر الله نبيه سليمان باختبار هو درس له ، وتعليم للأمة . هذا الدرس يمكننا أن نستنتجه من الحديث التالى :

عن أبى هريرة : قال رسول الله ﷺ : « قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على تسعين امرأة . تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله تعالى

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤/٣٤

ولم يقل : إن شاء الله ، فطاف عليهنّ ، فلم تحمل إلا امرأة واحدة ، جاءت بشق رجل . وأيم الذى نفس محمد بيده . لو قال : إن شاء الله ، لجاهدوا فى سبيل الله فرساناً أجمعون »[1] .

فالجسد المذكور فى الآية هو شق الصبى المذكور فى الحديث .

وقوله : ﴿ قال رب اغفر لى ﴾ أى نسيان قول : ﴿ إن شاء الله ﴾ وإن كان الناسى لا يؤاخذ ، لكنه مقام النبوة !! .

وأما طلبه ملكًا لا ينبغى لأحد من بعده فذلك ليكون معجزة له دالة على نبوته . وخاصة أنه مرسل إلى اليهود وهم عبيد المال والحكم .

وقد تفضل الله عليه بهذه النِّعم المذكورة فى الآيات تكريماً له . وختم قصة سليمان بما ختم به قصة داود ، حتى لا يتسرب أدنى شك فى عصمة كل منهما : ﴿ وإنّ له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ .

٧ - فى حق نبينا محمد عليه الصلاة والسلام :

قال تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ ﴾ {عبس} .

- ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ﴾ {الأنعام/٥٢} .
- ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴾ {الأنفال/٦٧}
- ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ ﴾ {التوبة/٤٣} .
- ﴿ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ ﴾ {الأحزاب/٣٧} .

---

(١) رواه البخارى فى الإيمان والنذور - الفتح ١١/٥٣٣ ومسلم فى الإيمان ٣/ ١٢٧٦ .

• ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ [الأحزاب/١].

• ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الإسراء].

• ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزمر].

• ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحاقة].

ولكى تفهم هذه الآيات الفهم اللائق بمقامه ﷺ نُنَبّه إلى أمور :

الأول - هناك مواقف حدثت له ﷺ لم ينزل فيها وحى ، فكان عليه أن يجتهد فيها ، ومن المعلوم أن الخطأ فى الاجتهاد - على فرض وقوعه - ليس معصية ، بل إنَّ صاحبه له أجر وثواب على ما بذله من جهد فى الموازنة والترجيح طلباً للحق والصواب ، وفى هذه المواقف قدوة للأمة ، حتى تبذل جهدها فيما لا نص فيه ، ولا تتجمد فتتأخر ، وتعلم أنه لا غضاضة فى الرجوع عن الرأى ، إذا ظهر أنه غير الحق والصواب ، أو أنه غير الأولى والأرجح .

الثانى - أن ترك الأولى لا يعتبر ذنباً . يستحق العتاب ، فإذا جاء عتاب على ترك الأولى ، دلَّ ذلك على عظمة النبىِّ الذى يُعاتَب من حبيبه على ترك الأولى !!

الثالث - قد يخاطب الله رسول الله ﷺ ويكون المقصود خطاب الأمة ، وخاصة ما فيه إنذار ووعيد ، وهذا أسلوب معروف فى اللغة العربية ، فيكون الخطاب من باب (إياكِ أعنى واسمعى ياجارة) .

الرابع - من القواعد المقررة :

أنَّ (الأمر) لا يستلزم سابقة تركه .

وأنَّ (النهى) لا يستلزم سابقة فعله .

وأنَّ (الشرط) لا يستلزم وقوع مضمونه .

وأنَّ (الفعل) لا يعتبر معصية إلا إذا سبقه نهى عنه .

فإذا ما عُدْتَ إلى الآيات المذكورة ، وجدتها لا تخرج عما نبهت إليه ، والله أعلم .

أدلة نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

أولا- القرآن الكريم :

وهو معجزته الكبرى التى تحدَّى بها الإنس والجن أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور ، أو بسورة من مثله ، فلم يستطيعوا ، ولو قدروا على معارضته لفعلوا ، ولو فعلوا لنُقِل إلينا لتوفر دواعى النقل ، فثبت أنه معجزة دالة على صدقه فى دعوى النبوة .

ثانياً - إخباره بالغيب :

ومنه ما جاء فى القرآن مما سبق ذكره .

ومنه ما جاء فى السنة المطهرة . من ذلك :

- « اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر »[(١)] .
- « خلافة النبوة ثلاثون سنة . ثم يؤتى الله ملكه من يشاء »[(٢)] .
- وقوله لسيدنا عمَّار : « تقتُلُك الفئةُ الباغية »[(٣)] . وقُتِل يوم صفين.

وهو يدل على انقسام الأمة ، وأن إحدى الفئتين باغية ، وأن عماراً سيموت مقتولا ، وأن الباغية هى التى ستقتله .

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده عن حذيفة ٣٨٢/٥

(٢) رواه أبو داود فى السنة ٣٧/٥

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أم سلمة ٣٠٠/٦ ومسلم ٢٢٣٦/٤

• وأخبر عن موت (النجاشي) في اليوم الذي مات فيه .وصلى عليه بأصحابه[1] .

• ونعى زيداً ، وجعفراً ، وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم. فقال: أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب - وعيناه تَذْرِفان- حتى أخذ سيفُ من سيوف الله ، حتى فتح الله عليهم[2] .

• وأخير أم حرام بنت ملحان زوج عبادة بن الصامت أنها ممن سيركب البحر غزاة في سبيل الله ، وقد حدث ذلك في زمن معاوية في فتح قبرص سنة ثمان وعشرين[3] .

• وقال ﷺ : «إنكم ستفتحون مصر وهى أرض يسمى فيها القيراط ، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها ، فإن لهم ذمة ورحماً أو قال : ذمة وصهراً »[4].

• ولمّا صعد جبل أحد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ، فرجف فقال : «اسكن احد ، فليس عليك إلا نبى ، وصدِّيق ، وشهيدان»[5] .

• وعن أبي هريرة عن النبى ﷺ قال: «هلك كسرى، ثم لايكونُ كسرى بعده، وقيصرٌ ليَهلكنَّ، ثم لايكون قيصرُ بعده، ولتُقسَّمَنَّ كنوزُهما فى سبيل الله »[6].

• وفى الصحيحين عن حذيفة بن اليمان قال : قام رسول الله ﷺ فينا مقاماً، ماترك فيه شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره . عَلِمَه مَن عَلِمه ، وجَهِلَه مَن جَهِلَه .

---

(١) رواه البخارى فى الجنائز - الفتح ٣/ ٤٥٥ ط. الحلبى .

(٢) رواه البخارى فى فضائل الصحابة - الفتح ٧/ ١٢٦

(٣) رواه البخارى فى الاستئذان - الفتح ١١/ ٧٣/ ٦٢٨٢

(٤) رواه مسلم فى فضائل الصحابة ٤/ ١٩٧٠ والقيراط جزء الدينار والدرهم وغيرهما : والرحم هاجر أم اسماعيل ، والصهر لكون مارية أم إبراهيم منهم

(٥) رواه البخارى كذلك فى فضائل الصحابة ٧/ ٦٦

(٦) رواه البخارى فى الجهاد - الفتح ٦/ ١٨٢

ثالثاً - معجزاته الحسية : من ذلك :

١ - **انشقاق القمر** : عن ابن مسعود قال : « انشقَّ القمرُ على عهد رسول الله ﷺ فرقتين : فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه . فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا »[١] .

٢ - **نزول الملائكة لنصره في الحرب** : قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [آل عمران] .

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال/٩] .

﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال/١٢] .

٣ - **إرسال الرياح لتأييده** : قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب/٩] .

٤ - **نبوع الماء من بين أصابعه** : عن أنس بن مالك أنه قال : رأيتُ رسول الله ﷺ ، وحانت صلاةُ العصر ، فالتمس الناسُ الوضوءَ ، فلم يجدوه ،

---

(١) رواه البخارى فى التفسير - الفتح ٥٨٣/٨

رسول الله ﷺ بوَضوء ، فوضع رسولُ الله ﷺ في ذلك الإناء يَده ، وأمر الناس أن يتوضئوا منه . قال : فرأيتُ الماءَ ينبعُ من تحتِ أصابِعه ، فتوضأ جميع أصحابه . قال : قلت -أي الراوي عن أنس- : كم كانوا يا أبا حمزة ؟ قال : كانوا زهاء الثلاثمائة .(١) .

وعن جابر رضي الله عنه قال : عطش الناسُ يوم الحديبية . ورسولُ الله ﷺ بين يديه ركوة ، فتوضأ منها ، ثم أقبلَ الناسُ نحوَه . فقال رسول الله ﷺ : مالكم ؟ فقالوا : يارسول الله ، ليس عندنا ماء نتوضأ به ، ولا نشرب إلا ما في ركوتك . قال : فوضع النبيُّ ﷺ يده في الركوة ، فجعل الماء يفورُ من بين أصابعه كأمثال العيون . قال : فشربنا وتوضأنا . قلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا . كنا خمسَ عشرةَ مائة (٢) .

وقد تكرر نبع الماء من بين أصابعه ﷺ عدة مرات ، وفي أماكن مختلفة ، ولم يَحدث نبع الماء من بين الأصابع لغيره من الأنبياء ، وهو أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر عندما ضربه موسى بالعصا ، فتفجرت منه المياه ؛ لأن خروج الماء من الحجارة أمر معهود ، بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم .

٥ - **إشباع الخلق الكثير من الطعام القليل** : فعندما صنعت أمُّ سُليم طعاماً قليلاً من مُدٍّ شعير ، ودعا زوجُها أبو طلحة رسول الله جاء ، وبارك الطعام . وقال ما شاء الله أن يقول . ثم قال لأبي طلحة : ائذن لعشرة. فأذِنَ لهم، فأكلوا حتى شبِعوا ، ثم خرجوا . ثم قال : ائذن لعشرة ، فأذِن لهم. فأكلوا حتى شبعوا . ثم خرجوا . ثم قال : ائذن لعشرة ، فأذِن لهم، فأكلواحتى

---

(١) رواه مسلم في الفضائل ١٧٨٣/٤

(٢) رواه البخاري في المغازي - الفتح ٤١٥٢/٥٠٥/٧

شبعوا ، ثم خرجوا . ثم قال : ائذن لعشرة . فأكل القوم كلهم حتى شبعوا ، والقوم ثمانون رجلاً [1] !

وكذلك عندما صنعتْ زوج جابر بن عبد الله طعاماً (عنزاً وصاعاً من شعير) وقال جابر : يارسول الله ، تعالَ ونفرٌ معك . فجاءه بالمهاجرين والأنصار الذين معه فى غزوة الخندق ، و كانوا ألف رجل ، فأكلوا جميعاً حتى شبعوا ، وبقى بقيةٌ من هذا الطعام القليل [2] .

٦ - **حنين الجذع** : قال جابر بن عبد الله : كان المسجد مسقوفاً عل جذوع من النخل ، فكان النبى ﷺ إذا خطب ، يقوم إلى جذع منها ، فلما صُنع له المنبرُ ، فكان عليه ، فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار ، حتى جاء النبى ﷺ فوضع يدَه عليها فسكنت .

وفى رواية : « يئنُّ أنين الصبى » [3] .

عن عمرو بن سواد عن الشافعى قال : ما أعطى الله نبياً ما أعطى محمداً ، فقلت : أعطى عيسى إحياء الموتى . قال : أعطى محمداً حنين الجذع حتى سُمع صوته . فهذا أكبر من ذلك .

وكان الحسن إذا سمِع بهذا الحديث يقول : يا معشر المسلمين ، الخَشَبَةُ تَحِنُّ إلى رسول الله شوقاً إلى لقائه ، فأنتم أحقُّ أن تشتاقوا إليه .

والمعجزات الحسية كثيرة جداً . ذكر الإمام النووى فى مقدمته لشرح صحيح الإمام مسلم أنها تزيد على ألف ومائتين .

---

(١) رواه البخارى فى المناقب - الفتح ٦/٦٧٨/٣٥٧٨

(٢) رواه البخارى فى المغازى - الفتح ٧/٤٥١/٤١٠١-٤١٠٢

(٣) رواه البخارى فى المناقب - الفتح ٦/٦٩٦ والعشار : جمع عشراء . وهى الناقة التى انتهت فى حملها إلى عشرة أشهر .

رابعاً - ذكره فى الكتب السماوية السابقة :

تعرض بعض علمائنا أن يذكروا فى هذا الشأن بعض نصوص الكتب السابقة التى تبشر ببعثته ، وتذكر بعض صفاته ﷺ كما فعل (سعد الدين التفتازانى) فقد أورد نصوصاً من التوراة ، ومن الإنجيل ، ومن الزبور تشير إلى ذلك - فليرجع إليها من شاء[1] .

وأكتفى بذكر حديث رواه الإمام البخارى بهذا الصدد :

« عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص -رضى الله عنهما- قلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة . قال : أجل. والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : ياأيها النبى ، إنا أرسلناك شاهداً ، ومبشراً ، ونذيراً ، وحِرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل . ليس بفظ ، ولاغليظ ، ولا سخَّاب فى الأسواق ، ولايدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يَقبضَه اللهُ حتى يقيمَ به الملة العوجاء . بأن يقولوا : لاإله إلا الله : ويُفتح به أعينُ عُمْىٌ ، وآذانٌ صُمٌّ ، وقلوبٌ غلفٌ »[2] .

وقد سجل القرآن الكريم أن ذكره ﷺ موجود فى الكتب السابقة . فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ {الشعراء} .

وقال سبحانه : ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ {الأعراف} .

---

(١) مقاصد الطالبين ١٣٩/٢

(٢) رواه البخارى فى البيوع - الفتح ٤٠٢/٤/ ٢١٢٥ ، حرزاً للأميين: أى حصناً للعرب ، والملة العوجاء : ملة الكفر.

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ {الصف/٦} .

خامساً - معرفة أهل الكتاب له :

قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ {البقرة} .

قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ {القصص} .

وهذه الآيات نزلت فى عشرين رجلا من علماء النصارى قدموا من الحبشة إلى مكة ، حين ظهر خبر النبى ﷺ فكلموه وسألوه ، ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مسألتهم رسول الله ﷺ عما أرادوا : دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل ، وتلا عليهم القرآن ، فآمنوا به ، وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره . فلما قاموا من عنده ، اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش فقال : خيَّبكم الله من ركب بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم ؛ ترتادون لهم ، فتأتونهم بخير الرجل ؛ فلم تظهر مجالستكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم : ما نعلم ركبا أحمق منكم . فقالوا : سلام عليكم لا نجاهلكم . لنا أعمالنا ، ولكم أعمالكم . لا نألوا أنفسنا خيراً [١].

---

(١) تفسير القرطبي ص ٢٢٥٢ . ٥٠١٢ ط الشعب .

وقال سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء].

عن أنس رضى الله عنه قال : بلغ عبد الله بن سلام مَقْدَمُ النبى ﷺ المدينة، فأتاه ، فقال : إنى سائلك عن ثلاثٍ لايعلمُهنَّ إلا نبىّ :

قال : ما أول أشراط الساعة ؟ وماأول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أى شىء ينزع الولد إلى أبيه ، ومن أى شىء ينزع إلى أخواله ؟

فقال رسول الله ﷺ : خبَّرنى بهنَّ آنفاً جبريل .

قال فقال عبد الله : ذاك عدوُ اليهود من الملائكة .

فقال رسول الله ﷺ : أمَّا أولُ أشراطِ الساعة ، فنار تَحشُرُ الناسَ من المشرق إلى المغرب .

وأمَّا أولُ طعامٍ يأكله أهل الجنةِ ، فزيادة كبد الحوت .

وأمَّا الشَّبه فى الولد ، فإنَّ الرجلَ إذا غَشِىَ المرأةَ ، فسبقها ماؤه ، كان الشَّبهُ له ، وإذا سبق ماؤها ، كان الشَّبهُ لها .

قال : أشهد أنك رسول الله »[1] .

وفى رواية أن عبد الله بن سلام قال لإخوانه : « يامعشرَ اليهود ، اتقوا الله، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بحق »[2] .

ونزل فيه قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الأحقاف]. وعلى هذا فالآية مدنية والسورة مكية .

---

(١) رواه البخارى فى الأنبياء - الفتح ٦/٤١٧/٣٣٢٩

(٢) رواه البخارى فى مناقب الأنصار - الفتح ٧/٢٩٤/٣٩١١

ويقول (زيد بن سعته) أحد أحبار اليهود : لم يبق من علامات النبوة شئ إلا وقد عرفته فى وجه محمد حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبُرْهما منه : يسبق حلمه غضبه ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا . وكنت أتلطف لأن أخالطه ، وأعرف حلمه وجهله ، فبايعته بأجل . فلما كان قبل الأجل بيومين أو ثلاثة أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه ، ونظرت إليه بوجه غليظ ، ثم قلت : ألا تقضى يا محمد حقى ؟ والله ما علمتكم يا بنى عبد المطلب لسيئ القضاء مُطُل . قال : فنظرت إلى عمر وعيناه تدوران فى وجهه . ثم قال : أى عدو الله أتقول لرسول الله ما أسمع ! فوالذى بعثه بالحق لولا ما احاذر فَوْتَه ، لضربت بسيفى رأسك . ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر فى سكون وتبسُّم . ثم قال : يا عمر أنا وهو إلى غير هذا منك أحوج : أن تأمره بحسن الاقتضاء ، وتأمرنى بحسن القضاء . اذهب به يا عمر فاقضه حقه ، وزده عشرين صاعاً مكان ما روَّعته . قال زيد : فذهب بى عمر ، فقضانى وزادنى ، فأسلمت [1] .

وقد سبق أن ذكرنا قول (هرقل) لأبى سفيان بعد حواره الطويل : « إن يكن ماتقول حقاً ، فهو نبى ، وسيملك ماتحت قدمىَّ هاتين » .

وقول (النجاشى) لسيدنا جعفر بن أبى طالب بعد أن استمع القرآن الكريم: « إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة » .

وتدَّبر ما نزل فى سورة (آل عمران) فى شأن وفد نصارى (نجران) وعددُهم ستون رجلاً ، فيهم كبار رجال دينهم ، وما دار بينهم وبين رسول الله ﷺ من مناظرات ، انتهت بدعوته لهم إلى (المباهلة) لكنَّ (العاقب) وكان ذا رأيهم قال لهم : « والله لقد عرفتم يامعشر النصارى أنَّ محمداً نبىٌّ مرسل . وما باهَلَ قومٌ نبياً قط ، فعاش كبيرهم ، ولانبت صغيرهم » .

وعندما خرج رسول الله محتضناً للحسين ، آخذاً بيد الحسن ، وفاطمة تمشى خلفه ، وعلىٌّ خلفها ، وهو يقول : « إذا أنا دعوتُ فأمِّنوا » قال أسقف نجران : يامعشر النصارى ، إنِّى لأرى وجوهاً ، لو سألوا الله أن

---

(١) أسد الغابة ٢/١٢٦ والإصابة ٤/٥٤

..بل جبلا لأزاله بها ، فلا تُباهِلوا ، فتهلكوا ، ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى ».

واصرُّوا على باطلهم . رغم معرفتهم للحق ، ودفعوا الجزية .

وقد سجَّل القرآن الكريم إيمان بعض النصارى الذين هداهم الله للحق فقال:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة].

سادسا - سيرته ﷺ الذاتية :

إنَّ الذى يَدْرُس حياة سيدنا محمد ﷺ من جوانبها المختلفة دراسة علمية دون تعصب أو هَوَى يُدرك يقيناً أنه نبى .

وقد ذكرت طرفاً منها أثناء حديثى عن (صفات الأنبياء وعلاماتهم) وفصلّت القول فى بعض جوانبه الأخلاقية فى كتابى (أخلاقنا) .

وسيظل العلماء يحاولون كشف أسرار هذه الشخصية ، ولكن أنَّى لهم ذلك، وهو أفضل الخلق ، وخير من سار على الأرض ، وصفوة الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وصدق الشاعر (محمود غنيم) إذ يقول :

هل تطلبون من المختار معجزةً ... يكفيه شعبٌ من الأجداث أحياه

ختم النبوة بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

الأدلة على ذلك :

(١) قال تعالى : ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب/ ٤٠]

والنبى أعم من الرسول . فيلزم من ختم الأنبياء ختم الرسل ، ولا يطعن فى ختمه للأنبياء والرسل نزول عيسى عليه السلام ؛ لأنه سيحكم بشريعة محمد ﷺ وسيكون فرداً من أمته ، ولاينافى ذلك أنه سيحكم برفع الجزية عن أهل الكتاب ، ولايقبل منهم إلا الإسلام أو السيف ، فيكون ذلك نسخًا لحكم من أحكام الإسلام ؛ لأن الإسلام جعَل قبول الجزية موقوتًا بنزول عيسى عليه السلام ، فإذا نزل انقطعت شبهتهم فى اتباعه .

(٢) قال ﷺ : « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثل رجل بنى بيتًا . فأحسنه وأجمله إلا موضع لَبِنة من زاوية . فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلاّ وُضِعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » رواه مسلم .

(٣) وقال ﷺ : « إنَّ لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يُحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب، والعاقب الذى ليس بعده نبى » متفق عليه .

(٤) وقال ﷺ : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيّون » رواه مسلم .

عموم بعثته إلى الجن والإنس :

(١) الأدلة من القرآن الكريم :

- ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف/ ٢٩]

• ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ① ﴾ {الجن}

• ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ {سبأ/٢٨}

• ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ {الأعراف/١٥٨}

• ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ {الأنعام/١٩} .

• ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ {آل عمران/ ٢٠}

(٢) ومن السنة المطهرة :

• « أعطيت خمسًا لم يُعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصلِّ ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » رواه مسلم .

• «والذى نفس محمد بيده، لايسمع بى أحد من هذه الأمة، يهودى ولا نصرانى، ثم يموت، ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» رواه مسلم.

وقد أرسل رسله ، وبعث كتبه فى أقطار الأرض إلى كسرى ، وقيصر ، والنجاشى ، والمقوقس ، وسائر ملوك العالم ، يدعوهم إلى الإسلام .

وأما قول (العيسوية) من النصارى: إنه رسول إلى العرب خاصة ، فالجواب عنه أنهم إذا اعترفوا برسالته ، لزمهم تصديقه فى كل ما يخبر به ، ومما أخبر به أنه رسول الله إلى الناس عامة ، والرسول لايكذب فلزم تصديقه حتمًا .

دفاع الله عن نبيه محمد ﷺ :

أثار المشركون وأهل الكتاب تهماً وافتراءات عديدة حول سيدنا محمد ﷺ قصداً لصرف الناس عنه وعن دعوته . وقد تولى الحق سبحانه رد هذه التهم والدفاع عنه ﷺ .

وفيما يلى نعرض بعض النماذج لهذا :

١ - قالوا إنه شاعر : ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ {الأنبياء/٥} .

وردَّ عليهم الحق : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ { يس } .

وبقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ { الصافات } .

وبقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ { الطور } .

٢ - وقالوا : إنه كاهن : مع علمهم بأن الرسول يسبُّ الشياطين . فكيف يتعاونون معه . ويُنزلون عليه شيئًا ! وهم محجوبون عن ذلك!

ودافع عنه الحق : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ { الحاقة } .

وقال له الحق : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ { الطور } .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾ [الشعراء] .

٣ - وقالوا : إنه ساحر : وقالوا : إنه مسحور فـرد الله عليهم بقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الذاريات]

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [الفرقان] .

٤ - وقالوا : إنه مجنون : ورد عليهم الحق سبحانه :

- ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [الأعراف] .
- ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [المؤمنون] .
- ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ [سبأ / ٤٦] .
- ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم] .

٥ - وتعجبوا من أن تكون الرسالة لمحمد اليتيم الفقير . فالأولى - فى نظرهم - أن تكون لأحد أشراف مكة أو الطائف الأغنياء . ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] .

فرد عليهم الحق : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف] .

٦ - وينكرون رسالته : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾
{ الرعد/٤٣ } .

ويردُّ عليهم : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾ { الرعد } .

ويقول : ﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ { يس } .

٧ - ويعترضون على أكله الطعام ، ومشيه فى الأسواق ، وتزوجه بالنساء : ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾
{ الفرقان / ٧ }.

ويردُّ عليهم الحق سبحانه :

- ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ { الفرقان / ٢٠ } .
- ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ { الرعد / ٣٨ } .
- ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ {الأحزاب}.

أى ليس عليه حرج فيما أباح له تعالى من الزوجات . فهذه سنة الله فى الأنبياء السابقين من التوسعة عليهم فى النكاح كداود وسليمان عليهما السلام.

٨ - وكان المشركون إذا سمعوا من رسول الله ﷺ الأخبار الماضية والمستقبلية ، قالوا إن محمداً يتعلمها من (جبر الرومى) النصرانى غلام الفاكه بن المغيرة الذى يجلس مع محمد بعدما أسلم . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ { النحل / ١٠٣ } .

فرد الله عليهم : ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ { النحل / ١٠٣ } .

وقال : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ { العنكبوت } .

٩ - وقال المشركون لو كان رسولاً لأتى بما نطلبه من الآيات الخارقة ، وجاء بالله والملائكة معه : ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ ﴾ { الحجر } .

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ { الإسراء } .

ويرد عليهم الحق : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ { الإسراء } .

ويقول سبحانه : ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الحجر] .

ويقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الرعد/٣٨] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجر] .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الأنعام] .

١٠ – واعترضوا على نزول القرآن مفرقًا ، ولم ينزل كاملاً كالكتب السابقة ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [الفرقان/٣٢] .

ويرد عليهم الحق مبينًا حكمة تفريقه : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان] .

ويقول : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الإسراء] .

١١ – ولما اتهمه المنافقون بأنه يسمع كثيراً ، ويصدق كل ما يقال دون تمييز بين الخير وغيره . دافع عنه الحق . وتوعدهم بالعذاب الأليم فقال تعالى :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ

يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين ءامنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم (٦١) ﴾ { التوبة} .

١٢ - ولما مات(القاسم) ابنه ﷺ قال المشركون : إن محمداً أبتر لا عقب له أي لا نسل له ، فإذا هلك انقطع ذكره .

فدافع عنه ربه وقال له :﴿ إنا أعطيناك الكوثر (١) فصل لربك وانحر (٢) إن شانئك هو الأبتر (٣) ﴾{ الكوثر } .

تعظيم الله لسيدنا محمد ﷺ:

أولاً : زكى اللهُ تعالى نبيه محمداً ﷺ جملة فقال : ﴿ والنجم إذا هوى (١) ما ضل صاحبكم وما غوى (٢) ﴾ وزكى كلامه فقال : ﴿ وما ينطق عن الهوى (٣) إن هو إلا وحي يوحى (٤) ﴾ وزكى معلمه فقال : ﴿ علمه شديد القوى (٥) ﴾ وزكى قلبه فقال : ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى (١١) ﴾ وزكى بصره فقال : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى (١٧)﴾ وزكى خلقه فقال له : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم (٤)﴾ { القلم} فزكاه جملة وتفصيلاً . وما فعل ذلك لنبي غيره.

ثانياً : لم يناده الحقُّ إلا باللقب الدال على تعظيمه مثل﴿ ياأيها النبي ﴾ ، ﴿ يا أيها الرسول ﴾ بينما نادى غيره من الرسل والأنبياء بأسمائهم مجردة مثل : ﴿ يا أدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ ، ﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك ﴾ ، ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ﴾ ، ﴿ يا موسى أقبل ولا تخف ﴾ ، ﴿ ياداود إنا جعلناك خليفة ﴾ ، ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ ،﴿ ياعيسى إني متوفيك ﴾.

ونهى الأمة أن تناديه باسمه . كما كانت الأمم تنادي أنبياءهم باسمائهم :

﴿ يا نوح قد جادلتنا ﴾ ، ﴿ ياهود ماجئتنا ببينة ﴾ ، ﴿ يا موسى اجعل لنا إلهاً ﴾ ، ﴿ يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول ﴾ .

فلما ناداه بعض المسلمين باسمه المجرد : (يا محمد) أو بكنيته : (يا أبا القاسم) نهاهم الحق بقوله ﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ {النور/٦٣} .

ثالثاً : أخبر تعالى أنه قد شرح له صدره، ووسَّعه ليشمل علم الأولين والأخرين ، ووضع عنه وزره ، بأن خفف عليه ثقل أعباء النبوة ، ورفع ذكره ، فبشَّر به فى الكتب السابقة . وأخذ العهد والميثاق على الأنبياء أن يؤمنوا به ، وينصروه ، إن ظهر فى زمانهم . فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾ {آل عمران} .

وقرن اسمه باسمه فى الشهادتين عند دخول الإسلام ، وفى الأذان ، والإقامة ، والتشهد فى الصلاة ، وفى خطب الجمعة والعيدين.

فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) ﴾ { الشرح } .

رابعاً : أخبر تعالى أنه وملائكته يصلون عليه ، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه ، وجعلها قربة يتقربون بها إليه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) ﴾ { الأحزاب} . والتعبير بالمضارع (يصلون) يدل على التجدد والاستمرار .

خامساً : أقسم بحياته ﷺ ولم يقسم بحياة أحد من خلقه فقال :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ { الحجر/٧٢} أي : وحياتك يا محمد إنهم لفى ضلالهم يتحيرون ، ولا يرون الرشد والحق .وكما أقسم بحياته : أقسم ببلده : ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝٢﴾ {البلد} وكما أقسم به وبلده : أقسم له : ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ { الضحى/١-٥}

سادساً : نهى عن التقدم بين يديه - ويدخل فيه تقديم الرأى على ما صح من حديثه - ورفع الصوت عليه - ويدخل فيه رفع الصوت على حديثه الذى يقرأ - وحرَّم الجهر بالكلام عند مناجاته ، وأوعد من لم يتأدب معه ببطلان ثواب عمله ، ووصفه بعدم العقل.

وهذه التوجيهات عامة تشمل حياته ، وعند زيارته بعد موته.

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ ﴾ {الحجرات}.

روى القاضى عياض عن ابن حميد قال : ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكاً فى مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك : يا أمير المؤمنين . لا ترفع صوتك فى هذا المسجد ، فإن الله تعالى أدَّب قوماً فقال :﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ﴾ الآية ، ومدح قوماً فقال ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﴾ الآية ، وذمَّ قوماً فقال : ﴿ إن الذين ينادونك ﴾ الآية . وإن حرمته ميتاً كحرمته حياً .

خامساً : أقسم بحياته ﷺ ولم يقسم بحياة أحد من خلقه فقال :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ {الحجر/٧٢} أي : وحياتك يا محمد إنهم لفي ضلالهم يتحيرون ، ولا يرون الرشد والحق .وكما أقسم بحياته : أقسم ببلده : ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ {البلد} وكما أقسم به وببلده : أقسم له : ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ { الضحى/١-٥}

سادساً : نهى عن التقدم بين يديه - ويدخل فيه تقديم الرأى على ما صح من حديثه - ورفع الصوت عليه - ويدخل فيه رفع الصوت على حديثه الذى يقرأ - وحرَّم الجهر بالكلام عند مناجاته ، وأوعد من لم يتأدب معه ببطلان ثواب عمله ، ووصفه بعدم العقل.

وهذه التوجيهات عامة تشمل حياته ، وعند زيارته بعد موته.

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ ﴾ {الحجرات}.

روى القاضى عياض عن ابن حميد قال : ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكاً فى مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك : يا أمير المؤمنين . لا ترفع صوتك فى هذا المسجد ، فإن الله تعالى أدَّب قوماً فقال :﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ﴾ الآية ، ومدح قوماً فقال ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﴾ الآية ، وذمَّ قوماً فقال : ﴿ إن الذين ينادونك ﴾ الآية . وإن حرمته ميتاً كحرمته حياً .

﴿ يا نوح قد جادلتنا ﴾ ، ﴿ ياهود ماجئتنا ببينة ﴾ ، ﴿ يا موسى اجعل لنا إلهاً ﴾ ، ﴿ يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول ﴾ .

فلما ناداه بعض المسلمين باسمه المجرد : (يا محمد) أو بكنيته : (يا أبا القاسم) نهاهم الحق بقوله ﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ {النور/٦٣} .

ثالثاً : أخبر تعالى أنه قد شرح له صدره، ووسَّعه ليشمل علم الأولين والأخرين ، ووضع عنه وزره ، بأن خفف عليه ثقل أعباء النبوة ، ورفع ذكره ، فبشَّر به فى الكتب السابقة . وأخذ العهد والميثاق على الأنبياء أن يؤمنوا به ، وينصروه ، إن ظهر فى زمانهم . فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ {آل عمران} .

وقرن اسمه باسمه فى الشهادتين عند دخول الإسلام ، وفى الأذان ، والإقامة ، والتشهد فى الصلاة ، وفى خطب الجمعة والعيدين.

فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ { الشرح } .

رابعاً : أخبر تعالى أنه وملائكته يصلون عليه ، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه ، وجعلها قربة يتقربون بها إليه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ { الأحزاب} . والتعبير بالمضارع (يصلون) يدل على التجدد والاستمرار .

خامساً : أقسم بحياته ﷺ ولم يقسم بحياة أحد من خلقه فقال :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر/٧٢] أى : وحياتك يا محمد إنهم لفى ضلالهم يتحيرون ، ولا يرون الرشد والحق .وكما أقسم بحياته : أقسم ببلده : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ ﴾ [البلد] وكما أقسم به ولبلده : أقسم له : ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [الضحى/١-٥]

سادساً : نهى عن التقدم بين يديه - ويدخل فيه تقديم الرأى على ما صح من حديثه - ورفع الصوت عليه - ويدخل فيه رفع الصوت على حديثه الذى يقرأ - وحرَّم الجهر بالكلام عند مناجاته ، وأوعد من لم يتأدب معه ببطلان ثواب عمله ، ووصفه بعدم العقل.

وهذه التوجيهات عامة تشمل حياته ، وعند زيارته بعد موته.

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الحجرات].

روى القاضى عياض عن ابن حميد قال : ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكاً فى مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك : يا أمير المؤمنين . لا ترفع صوتك فى هذا المسجد ، فإن الله تعالى أدَّب قوماً فقال : ﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ﴾ الآية ، ومدح قوماً فقال ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﴾ الآية ، وذمَّ قوماً فقال : ﴿ إن الذين ينادونك ﴾ الآية . وإن حرمته ميتاً كحرمته حياً .

فاستكان لها أبو جعفر . وقال : يا أبا عبد الله . أستقبل القبلة وأدعو ،أم استقبل رسول الله ﷺ ؟

فقال : ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة ! بل استقبله ، واستشفع به ، فيشفعك الله . قال تعالى : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا ﴾ الآية [1] .

ومعلوم أن هذه الآية عامة .والعام يبقى على عمومه إلى أن يرد دليل التخصيص ، ولا مخصص لها .

سابعاً : نفي الإيمان عمن لم يذعن لحكمه ﷺ ، ويستسلم لقضائه استسلاماً تاماً ، لا يبقى معه أدنى حرج في نفسه . قال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ { النساء} : وجعل طاعته ﷺ طاعة لله ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ وجعل اتباعه طريق محبة الله وغفران الذنوب ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ { آل عمران / ٣١}. وجعل مبايعته مبايعةً لله :﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ {الفتح/ ١٠}.

ثامناً : جعل وجوده بين الناس مانعاً من نزول العذاب بقومه رغم أنهم يستحقونه لكفرهم وعنادهم تكريماً له ﷺ قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾{الأنفال} . وتكفل بحفظه وعصمته : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾{الطور/٤٨}. ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾ {الحجر}. ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾{المائدة/٦٧} .

تاسعاً : جعل زوجاته رضى الله عنهن مؤمنات ، ولسن كافرات كما كان

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢ / ٣٣

بعض الأنبياء مثل نوح ولوط ، وجعلهم أمهات للمؤمنين فقال :
﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ ﴾ {الأحزاب /٦} .

وفرض عليهن الحجاب صيانة له ولهن فقال : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ ﴾ {الأحزاب/٥٣ } .

ولم يوجب عليه القسم بينهن ، وإنما خيره فيه فقال : ﴿ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ﴾ { الأحزاب /٥١} .

وأباح له نكاح النساء بلفظ الهبة دون صداق ، ولم يفعله ﷺ فقال :
﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ ﴾ { الأحزاب / ٥٠} .

وحرم على المسلمين نكاح زوجاته من بعده . فقال : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾ { الأحزاب } .

وطهر ذريته ﷺ فقال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ { الأحزاب } .

عاشراً - جعل أمته أمة وسطاً خياراً عدولاً ، شهوداً على الأمم السابقة أن رسلهم بلغوهم الرسالة ، وجعله شهيداً على هذه الأمة . فقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ {البقرة/١٤٣} .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ﴾
قال ابن عباس رضى الله عنهما : الشاهد محمد ﷺ والمشهود يوم القيامة .

نبينا ﷺ أفضل الخلق :

وبعد فهذه عشرة أمور مما جاء فى تعظيم الله تعالى لنبيه محمد ﷺ وقد أجمعت الأمة على أفضليته على كل الأنبياء ، وجميع المخلوقات ، ولا يتعارض ذلك مع قوله ﷺ «لا تفضلوا بين الأنبياء»[1] لأمور نذكرها فيما يلى:

الأمر الأول : أن مبدأ التفضيل ثبت بالقرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ ۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ ﴾ { البقرة / ٢٥٣ }. وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ ﴾ { الإسراء / ٥٥ } .

الأمر الثانى : أن المنهى عنه التفضيل الذى تدعو إليه العصبية والهوى ، أو الانتقاص من شأن المفضول . أما إذا كان على وجه إظهار الحق ، ومعرفة القدرة فهو جائز توفيقاً بين النصوص . تأمل ما رواه الإمام مسلم:

عن أبى هريرة قال : بينما يهودى يعرض سلعة له أعطى بها شيئاً كرهه – أو لم يرضه – قال : لا والذى اصطفى موسى عليه السلام على البشر . قال : فسمعه رجل من الأنصار .فلطم وجهه. قال : تقول والذى اصطفى موسى عليه السلام على البشر ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ! قال : فذهب اليهودى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا أبا القاسم . إن لى ذمة وعهداً . وقال : فلان لطم وجهى . فقال رسول الله ﷺ : لِمَ لطمت وجهه ؟ قال : قال يا رسول الله والذى اصطفى موسى عليه السلام على البشر . وأنت بين أظهرنا .قال : فغضب رسول الله ﷺ حتى عُرِف الغضب فى وجهه .ثم قال: لاتفضلوا بين أنبياء الله، فإنه

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الفضائل ٤ / ١٨٤٣ .

ينفخ فى الصور ، فيَصْعَقُ من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله . قال : ثم ينفخ فيه أخرى ، فأكونُ أولَ من بُعِثَ - أو فى أول من بعث - فإذا موسى عليه السلام آخذ بالعرش . فلا أدرى أَحوسب بصعقته يوم الطور ، أو بُعث قبلى . ولا أقول إنَّ أحداً أَفضل من يونس بن متى عليه السلام »[1].

الأمر الثالث : ما ورد من أحاديث نبوية يفهم منها تفضيل بعض الأنبياء على سيدنا محمد ﷺ إنما هو من باب تواضعه ﷺ .وذلك مثل ما رواه مسلم عن أنس بن مالك قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا خبر البريَّة . فقال رسول الله ﷺ : ذاك إبراهيم عليه السلام [2] .

فهذا من تواضعه ، والتواضع لا يحط من درجة الكبير ، بل يزيده رفعة وجلالاً ، وأيضاً من باب الأدب واحترام وتقدير الأبوة .

ومثل ما رواه عن أبى هريرة قال : قيل يا رسول الله . مَن أكرمُ الناس ؟ قال : أتقاهم . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فيوسفُ نبيُّ الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فعن معادن العرب تسألونى ؟ خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فَقُهُوا[3].

ومثل ما رواه أيضاً عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم. إذ قال رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى . ويرحمُ اللهُ لوطاً . لقد كان يأوى إلى ركن شديد . ولو لبثتُ فى السجن طولَ لَبْث يوسفَ لأجبتُ الداعى [4] ».

فهو ﷺ يرد على الصحابة الذين قالوا عند نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ

(١) هو الحديث السابق بتمامه.

(٢) رواه مسلم فى الفضائل ٤ / ١٨٣٩

(٣) رواه مسلم فى الفضائل ٤ / ١٨٤٦

(٤) رواه مسلم فى الفضائل ٤ / ١٨٣٩

إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ قالوا : إن إبراهيم شك ونبينا لم يشك.

وقالوا عند نزول قوله تعالى :﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ ﴾ { هود/ ٨٠ } . قالوا إن لوطاً تمنى العشيرة التى يعتمد عليها ، ونبينا لم يعتمد إلا على الله .

وقالوا: عندما نزل على لسان يوسف :﴿ ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ [يوسف/ ٤٢ } . أى مليكك . قالوا : يوسف يسأل الملك . ونبينا لم يسأل إلا الله.

دفعه تواضعه ﷺ إلى الرد على الصحابة :

فإبراهيم عليه السلام لم يشك فى وقوع البعث ، فهو مؤمن به يقيناً ، والسؤال بكيف يكون عن حال الشيء الموجود المعتقد صحته الذى يشتاق القلب إلى رؤية كيفيته . والمراد بالشك الخواطر التى تعرض للقلب ولا تدوم.وقال بعض العلماء : إن صيغة أفعل (أحق) تأتى لنفى المعنى عن الشيئين مثل : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ { الدخان/٣٧ } . أى لا خير فيهما فقوله ﷺ (نحن أحق بالشك من إبراهيم) أى لا شك عندنا ولا عند إبراهيم.(١)

ولوط عليه السلام كان يأوى إلى ركن شديد . وهو الله تعالى تماماً كما يأوى إليه نبينا ﷺ .

ويوسف عليه السلام لم يكن معتمداً إلا على الله بدليل أنه لم يسارع بالخروج من السجن عندما جاءه رسول الملك رغم طول السجن وبؤسه . وإنما كان مثالاً للصبر والرضا بالقضاء . فلم يخرج حتى ثبتت براءته .

وهكذا كان تواضع نبينا ، ودفاعه عن إخوانه الأنبياء عليهم جميعاً الصلاة السلام.

---

(١) أى ليس المراد الشك الاصطلاحى . وعلى فرضه فالمعنى : نحن أحق بالشك من إبراهيم . لو أنه شك . لكنه لم يشك ،فلسنا أحق بالشك منه (قياس استثنائى اتصالى فيه نفى للتالى ، فينتفى المقدم).

الأمر الرابع : ما جاء على لسان نبينا ﷺ من بيان قدره الذى حباه به ربُّه ليس من الفخر المذموم المنهى عنه . بل هو بعض ما وجب عليه تبليغه لنا من الوحى ، لنعرف قدره . حيث إنه لا نبى بعده يخبرنا بقدره . فتعيّن عليه أن يخبرنا به . كما أخبرنا عن منزلة الأنبياء السابقين .

ومثال ذلك قوله ﷺ : « إن الله اصطفى كِنانة من ولدِ إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم »[١] .

وقوله ﷺ :« أنا سيدُ ولدِ أدم يوم القيامة . وأولُ من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأولُ مُشَفَّع »[٢] .

وفى رواية للإمام أحمد قال ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرضُ يوم القيامة ولا فخر . وأنا أول شافع يوم القيامة ولا فخر »[٣] .

والسيد : هو الذى يفوق قومه فى الخير ، ويُفزع إليه فى النوائب والشدائد . فيقوم بأمرهم ، ويتحمل عنهم مكارههم ، ويدفعها عنهم.

وتأمل أدب البنوة مع الأبوة فى قوله : «سيد ولد آدم » ولم يقل : سيد أدم وولده . مع أنَّ الله فضله على أبيه آدم !

وإنما خصَّ (يوم القيامة» مع أنه سيدهم فى الدنيا الآخرة ؛ لأنه فى هذا اليوم تظهر عظمته لكل الخلق ، لا ينازعه فيها أحد . بخلاف الدنيا فقد نازعه فيها ملوك الكفر ، وزعماء الشرك وهذا شبيه بقوله تعالى : لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) مع أن الملك له قبل ذلك .

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الفضائل ١٧٨٢/٤

(٢) رواه مسلم فى الموضع السابق.

(٣) المسند ٣ / ٢.

الفصل الخامس

الأولياء

تعريف الولاية والولى :

الولاية : القُرب ، والحب ، والنصرة ، وهى ضد العداوة التى هى البعد ، والبغض وإرادة الانتقام من العدو ، وهى بكسر الواو وفتحها . قرأ حمزة (مالكم من ولايتهم من شىء) بكسر الواو ، وقرأ الباقون بفتحها .

وولاية الله للعبد : أن يهديه للإيمان والطاعة ، وأن يعينه على العبادة ، فيزداد قربًا منه . فيحبُّه الله ، ويتولى أمره .

والولى هو العارف بالله وصفاته . المواظب على طاعته ، المجتنب لمعصيته، المعرض عن الانهماك فى اللذات والشهوات .

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ ﴾ [البقرة/٢٥٧] وقال : ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [الأعراف/١٩٦] .

وقال فى الحديث القدسى : « من عادى لى وليًا ، فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحبَّ إلىَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبَّه ، فإذا أحببته ، كنت سمعَه الذى يسمع به ، وبصرَه الذى يبصر به ، ويدَه التى يبطش بها ، ورجلَه التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينَّه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه » . رواه البخارى

ومعناه : أن الله يُسدِّد الولى فى سمعه ، وبصره ، ويده ، ورجله ، بحيث يكون عمله بهذه الجوارح لله اتباعًا وإخلاصًا ، وليس معناه أن الله يكون سمع

الولى ، وبصره ، ويده ، ورجله ، لأن الحديث قد أثبت عبداً ومعبوداً ، ومتقربًا ومتقربًا اليه ، ومُحبًا ومحبوبًا ، وسائلاً ومسئولاً ، ومعطيًا ومعطى ، ومستعيذا ومستعاذاً به ، ومعيذاً ، ومعاذاً ، فدلَّ الحديث على اثنين متباينين هما : العبد والرب ، ويمتنع أن يكون أحدهما عين الآخر .

وولاية العبد لله : أن يؤمن به ، ويتقيه ، ويتقرب إليه بالفرائض والنوافل، ويوالى مَن يوالى، ويعادى مَن يعادى ، ويحبُّ ما يحب ، ويكره ما يكره .

قال تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾(1) {يونس} .

---

(1) قال عمر بن الخطاب فى هذه الآية : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ من عباد الله عباداً ، ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى . قيل : يا رسول الله . خبِّرنا مَن هم ، وما أعمالهم . فلعلنا نحبهم ، قال : هم قوم تحابُّوا فى الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها. فوالله إنَّ وجوههم لنور، وإنهم لعلى منابر من نور. لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم قرأ : ﴿ إلا إن أولياء الله لا خوف عليهـم ولا هم يحزنون ﴾ رواه أبو داود ٣٥٢٧ والحاكم ٤/ ١٧٠.

فأولياء الله هم الذين يُذكر اللهُ برؤيتهم لما هم عليه من الخشوع والخضوع . سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . قلوبهم مستغرقة فى نور معرفته ، وألسنتهم ناطقة بذكره ، وعيونهم مشاهدة لدلائل قدرته. وآذانهم مستمعة لآيات كتابه، وأبدانهم مشغولة بعبادته.

هؤلاء لا خوف عليهم من لحوق مكروه ، ولا هم يحزنون لفوات مأمول ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾ .

لهم البشرى فى الحياة الدنيا برؤيا صالحة يرونها ، أو تُرى لهم .

وبمحبة الناس لهم ، وثنائهم عليهم . « قيل يا رسول الله . أرأيت الرجل يعمل العملَ من الخير ، ويحمده الناس عليه ؟ قال : تلك عاجل بشرى المؤمن » رواه مسلم فى البر ٤/ ٢٠٣٤.

ولهم البشرى عند الموت برؤية أحدهم مقعده من الجنة عند خروج روحه ، وتبشير الملائكة له: ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ﴾ .

ولهم البشرى فى الجنة : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ .

فالله يوالى عبده إكرامًا منه ، والعبد يوالى ربه احتياجًا إليه .

ولفظ (**الولى**) يكون بمعنى اسم الفاعل ، فهو من والى الله بموافقته محبوباته والتقرب إليه بمرضاته ، ويكون بمعنى اسم المفعول : فهو من والاه الله بالحب ، والأمن ، والتوفيق ، والبشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

والأولياء يتفاوتون فى درجاتهم بحسب قربهم من الله تعالى ، وبمقدار تقواهم ، يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) ﴾ [فاطر] .

فهذه طوائف ثلاث : الظالم لنفسه ، والمقتصد ، والسابق بالخيرات ، وكلهم يدخلون الجنة. فهم من أولياء الله مع تفاوت درجاتهم فى الدنيا والآخرة.

والأولياء ليسوا معصومين ، فالعصمة للأنبياء فقط ، ولا يلزم لحصول الولاية أن تظهر الكرامات وخوارق العادات على يد الولى ؛ بل إن بعضهم قد يترفع عن ذلك ، ويستتر منه .

وتجتمع فى المؤمن ولاية من وجه وعداوة من وجه ، كما قد يكون فيه تقوى وفجور ، ونفاق وإيمان .

تعريف الكرامة :

الكرامة هى الآية أو الأمر الخارق للعادة الذى يكرم الله به أولياءه الصالحين من غير الأنبياء .

وصفات الكمال ترجع إلى ثلاثة : العلم ، والقدرة ، والغنى ، وهى لا توجد على وجه الكمال إلا لله . فقد أحاط بكل شىء علمًا ، وهو على كل شىء قدير ، وهو غنى عن العالمين .

وقد أمر الرسول ﷺ أن يبرأ منها : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [الأنعام/ ٥٠]

وذلك لأنهم يطالبونه تارة بعلم الغيب : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النازعات] .

وتارة بالتأثير : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [الإسراء]

وتارة يعيبون عليه الحاجة البشرية : ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ ﴾ [الفرقان] .

وينال العبد من هذه الصفات الثلاثة بقدر ما يعطيه الله :

فيعلم ما علمه الله .

ويقدر على ما أقدره عليه .

ويستغنى عما أغناه عنه من الأمور المخالفة للعادة .

فما كان من الخوارق من باب العلم : فتارة بأن يسمع العبد مالا يسمعه غيره ، وتارة بأن يرى ما لا يراه غيره يقظة أو منامًا ، وتارة بأن يعلم ما لم يعلمه غيره وحيًا وإلهامًا ، أو إنزال علم ضرورى ، أو فراسة صادقة ، ويسمى كشفًا ، ومشاهدات ، ومكاشفات ، ومخاطبات .

فالسماع : مخاطبات ، والرؤية : مشاهدات ، والعلم : مكاشفة .

ويسمى ذلك كله : كشفًا ومكاشفة .

وما كان من باب القدرة فهو التأثير ، مثل تذليل النفوس له ، ومحبتها إياه .

وقد يكون التأثير فى الكونيات : إما فى نفسه ، كمشيه على الماء ، وطيرانه فى الهواء ، وجلوسه فى النار .

وإما فى غيره بإصحاح ، وإهلاك ، وإغناء ، وإفقار .

وذلك أن للقلوب من التأثير أعظم مما للأبدان ، لكن إذا كانت صالحة ، كان تأثيرها صالحًا ، وإن كانت فاسدة ، كان تأثيرها فاسداً .

والفاعل للأمر الخارق إنما هو الله تعالى . يجريه على يد نبى ، فيسمى : (معجزة) أو على يد ولى فيسمى : (كرامة) .

حكم الكرامة :

أولا - مذهب أهل السنة :

قالوا : إنها جائزة عقلاً ، وواقعة فعلاً .

أدلة أهل السنة :

١ - من القرآن الكريم :

- ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ﴾ {الطلاق}.
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ {الأنفال/٢٩}.

• ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ { آل عمران } .

• ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ ﴾ { مريم } .

• ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى ﴾ (النمل/٤٠) .

٢ - **ومن السنة المطهرة** : قصة الثلاثة الذين آواهم الغار ، فتوسلوا إلى الله بصالح أعمالهم ، ففرج الله عنهم ، وقصة جريج العابد ، فقد أنطق الله له الغلام فى المهد .

ثانيا - مذهب المعتزلة :

قالوا : إن الكرامة مستحيلة لا تقع .

واستدلوا بقولهم :

لو وقعت الكرامة ، لأشبهت المعجزة ، فيلتبس الولى بالنبى .

رد أهل السنة عليهم :

لا يلتبس الولىّ بالنبى ، لأن الولى لا يدَّعى النبوة ، ولا يتحدَّى الناس بالأمر الخارق الذى ظهر على يديه ، ولو ادَّعَى النبوة ، لصار متنبئًا كذابًا ، يفضحه الله .

كما أن إنكار الكرامات يعتبر إنكاراً للمحسوسات الموجودة فى كل عصر.

أنـــواع الفراسـة :

(١) **فراسة إيمانية** : سببها نور يقذفه الله فى قلب عبده الصالح ، فهى خاطر يَثِـبُ على القلب وثوب الأسد على فريسته ، وكلما كان العبد أقوى إيمانًا ، كان أقوى فراسة . قال عليه الصلاة والسلام : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » ثـم قـرأ قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ {الحجـر}، المتوسمين : المتفرسين .

قال أبو سليمان الدارانى : " الفراسة مكاشفة النفس ، ومعاينة الغيب ، وهى من مقامات الإيمان " .

(٢) **فراسة رياضية** : وهى التى تحصل بالجوع والسهر ، فإن النفس إذا تجرَّدت عن العوائق ، صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها . وهذا النوع مشترك بين المؤمن والكافر ، ولا يدل على ولاية .

(٣) **فراسة خِلقيـة** : وهى الاستدلال بالخلق على الخلق ، كالاستدلال بسعة الصدر على سعة الخلق ، وبضيقه على ضيقه .

وهذا النوع غير منضبط .

مـن كرامـات الأوليـاء :

قصة الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى الصحيحـين ، لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته ، وجعل لا يأكل لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها ، فشبعوا ، وصارت أكثر مما هى قبل ذلك فنظر إليها أبو بكر وامرأته ، فإذا هى أكثر مما كانت ، فرفعها إلى رسول الله ﷺ، وجاء اليه أقوام كثيرون فأكلوا منها وشبعوا .

وأخبر أبو بكر عائشة عند موته بأن ببطن زوجه الحامل أنثى ، فكانت كما أخبر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ : « قد كان فى الأمم قبلكم مُحَدَّثون فإن يكن فى أمتى أحد . فعمر منهم » والمُحَدَّث : المُلهم . قال ابن عمر : ما كان عمر يقول فى شىء : إنى لأراه كذا إلا كان كما يقول .

وكان عمر يقول : اقتربوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنه تتجلى لهم أمور صادقة .

وقصته مع سارية بن حصن عندما ناداه: يا سارية ، الجبل الجبل . مشهورة.

وكان أسيد بن حضير إذا قرأ القرآن نزلت الملائكة لقراءته ، فيراها مثل الظُّلة ، فيها أمثال السُّرُج .

وكانت الملائكة تُسَلِّم على عمران بن حصين .

وكان سلمان وأبو الدرداء يأكلان فى صحفة، فسَّبحت الصحفة، أو سبَّح ما فيها.

وعبَّاد بن بشر ، وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله ﷺ فى ليلة مظلمة ، فأضاء لهما نور مثل طرف السَّوط ، فلما افترقا افترق الضوء معهما.

وخبيب بن عَدِىّ كان أسيراً فى مكة عند المشركين ، وكان يؤتى بعنب يأكله ، وليس بمكة عنبة .

وخرجت أم أيمن مهاجرة ، وليس معها زاد ولا ماء ، فكادت تموت من العطش ، فلما كان وقت الفطر ، وكانت صائمة ، فإذا دلو معلق فوق رأسها ، فشربت منه حتى رويت ، وما عطشت بقية عمرها .

وسفينة مولى رسول الله ﷺ أخبر الأسد بأنه رسول لرسول الله ﷺ ، فمشى معه الأسد حتى أوصله مقصده .

والبراء بن مالك كان إذا أقسم على الله تعالى أبرَّ قسمه ، وكان الحرب إذا

اشتدَّ على المسلمين فى الجهاد يقولون : يا بـراء أقسم على ربك . فيقول : يارب ، أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم ، فيهزم العدو ، فلما كان يوم القادسية قال : أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم ، وجعلتنى أول شهيد . فمنحوا أكتافهم ، وقُتِلَ البراء شهيدا .

وخالد بن الوليد حاصر حصنًا منيعًا فقالوا : لا نُسلِّم حتى تشرب السم . فشربه ، فلم يضره .

وسعد بن أبى وقاص كان مستجاب الدعوة ، ما دعا قط إلا استجيب له، وهو الذى هزم جنود كسرى ، وفتح العراق .

والعلاء بن الحضرمى عامل الرسول على البحرين، دعا الله لما اعترضهم البحر، ولم يقدروا على المرور بخيولهم، فمروا كلهم على الماء، ما ابتلت سروج خيولهم .

وأبو مسلم الخولانى لما سأله الأسود العنسى مُدعى النبوة ، وقال له : أتشهد أنى رسول الله ؟ قال : ما أسمع قال : أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فقال : نعم . فأمر بنار . فألقى فيها . فوجدوه قائمًا يصلى فيها ، وقد صارت برداً وسلامًا . وقدم المدينة بعد موت النبى ﷺ فأجلسه عمر بينه وبين أبى بكر الصديق رضى الله عنهم . وقال : الحمد لله الذى لم يُمتنى حتى أرى من أمة محمد ﷺ من فُعِلَ به كما فُعِلَ بإبراهيم خليل الله [١] .

و (صلة بن أشيم) ت ٣٥ هـ مات فرسه ، وهو فى الغزو فقال : اللهم لا تجعل لمخلوق علىَّ منَّة ، ودعا الله عز وجل : فأحيا له فرسه ، فلما وصل إلى بيته قال : يا بنى . خذ سرج الفرس ، فإنه عارية . فأخذ سرجه ، فمات الفرس.

---

(١) انظر : (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) لابن تيمية ، ومجلد (التصوف) من مجموع الفتاوى له .

ودعا (الحسن البصرى) على بعضِ الخوارج ، كان يؤذيه ، فخَّر ميتًا .

و (سعيد بن زيد) لما اتهمته (أروى بنت الحكم) زوراً وبهتانًا قال : اللهم إن كانت كاذبة فأعمِ بصرها ، واقتلها فى أرضها . فعميت ووقعت فى حفرة من أرضها فماتت .

الفصل السادس

أشراط الساعة

الأشراط : جمع شرط . وهو العلامة . والمراد العلامات التى تدل على قرب يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ ﴾ { محمد } .

وعلامات الساعة نوعان :

علامات صغرى : وهى البعيدة عن اليوم الآخر ، وتحدث خلال فترات طويلة من الزمان .

وعلامات كبرى : وهى القريبة من النفخ فى الصور، وتحدث فى فترة وجيزة آخر الزمان . إذا ظهرت إحداها تتابعت كلها . كأنها خرزات فى خيط ، إذا سقطت واحدة تتابع باقيها حتى تسقط جميعًا .

وإذا بدأت العلامات الكبرى فى الظهور ، عندئذ لا يُقبل إيمان من كافر ، ولا توبة من مذنب ، ولا عمل خير من مسىء، قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ {الأنعام/١٥٨} .

وفيما يلى نذكر بعض أشراط الساعة :

العلامات الصغرى :

يمكن أن نقسمها قسمين : قسم قد وقع كما جاء فى الوحى ، وقسم ينتظر حدوثه .

(١) فمن القسم الأول :

(أ) بعثته صلى الله عليه وسلم : كما جاء فى الحديث الصحيح : « بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار إلى إصبعيه : السبابة والوسطى ، وقرن بينهما » . متفق عليه

(ب) انشقاق القمر : قال تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾ { القمر } .

فقد روى الشيخان حديث انشقاق القمر على عهد رسول الله ﷺ حين طلبت قريش منه آية تدل على نبوته . فدعا الله ، فانشق القمر فلقتين على جبل أبى قبيس على مرأى من أهل مكة ، وهم ينظرون اليه .

(جـ) قتال على ومعاوية رضى الله عنهما فى صفّين حيث قال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان ،وتكون بينهما مقتلة عظيمة ، ودعواهما واحدة » . رواه الشيخان

(د) انقطاع ورود الخراج وغيره من الأقطار إلى أهل الحجاز. قال ﷺ : « مَنعت العراق درهمها وقفيزها ، ومنعت الشام مديها ودينارها ، ومنعت مصر أردبها ودينارها ، وعدتم من حيث بدأتم » . رواه مسلم

فأخبر صلوات الله وسلامه عليه فى هذا الحديث أن العراق ، والشام ومصر سيدخل أهلها فى الإسلام ، ويرسلون الخير لأهل الحجاز ، ثم تستقل

هذه البلاد عن الخلافة الإسلامية ، وتمنع ما كانت تُقَدِّمه لأهل الحجاز .

(هـ) النار التى خرجت بالمدينة المنورة : قال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز ، تضيء أعناق الإبل ببُصْرَى ». رواه الشيخان

وقد حدث ذلك فى ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة ٦٥٤ هـ فقد احترقت الحرة الشرقية من المدينة المنورة ، وظهرت بها البراكين ، وظلت النار مشتعلة مدة طويلة ، وضوء نارها يُرى من بصرى الشام ، وما زالت أحجارها سوداء محترقة ، كالفحم إلى وقتنا هذا .

(و) وفى الحديث التالى عدة علامات ، أغلبها قد تحقق ، وينتظر وقوع الباقى : عن عوف بن مالك الأشجعى قال : أتيت النبى ﷺ فى غزوة تبوك - وهو فى قبة من أدم - فقال : « اعدد ستًا بين يدى الساعة : موتى ، ثم فتح بيت المقدس ، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم ، ثم استفاضة المال حتى يُعْطَى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا ، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ، ثم هدنة تكون بينكم وبين بنى الأصفر فيغدرون ، فيأتونكم تحت ثمانين غاية ، تحت كل غاية اثنا عشر الفا » وفى رواية (راية) بدل (غاية).[١]

(٢) ومن القسم الثانى :

(أ) قال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يحسرَ الفرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون ، ويقول كل رجل منهم : لعلى أكون أنا الذى أنجو »[٢]

(١) موتان : بضم الميم وفتحها مع سكون الواو : الموت الكثير . القعاص : داء يصيب الدواب، فيسيل من أنوفها شيء ، فتموت فجأة . يقال ان هذه الآية ظهرت فى طاعون عمواس فى خلافة عمر. وكان بعد فتح بيت المقدس ، واستفاضة المال كان فى خلافة عثمان . بنو الأصفر : الروم .

(٢) رواه مسلم فى الفتن ٤/٢٢١٩ (يحسر) ينكشف لذهاب مائه .

(ب) قال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يملك الناسَ رجلٌ من أهل بيتى ، يواطئ اسمه اسمى ، واسم أبيه اسم أبى ، فيملؤها قسطًا وعدلاً »[1] وفى رواية: « المهدى منى أجلى الجبهة ، أقنى الأنف ، يملأ الأرض قسطًا وعدلاً ، كما ملئت جوراً وظلمًا ، يملك سبع سنين »[2] .

(ج) وقال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبىء اليهودى من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ، يا عبد الله ، هذا يهودى خلفى ، فتعال فاقتله إلا الغرقد ، فإنه من شجر اليهود » رواه البخارى ومسلم .

(د) وقال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يَمُرَّ الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتنى مكانه » رواه مسلم . أى من شدة البلاء والفتن .

(هـ) وقال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ، ويفيض حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحداً يقبلها منه ، وحتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهاراً » رواه مسلم . المروج الرياض والمزارع .

العلامات الكبرى :

« عن حذيفة بن أسيد قال : اطّلع النبى ﷺ علينا ونحن نتذاكر الساعة، فقال : ما تذاكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة . فقال : إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات فذكر : الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى ابن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم » رواه مسلم .

---

(١) رواه أحمد ٣٧٦/١ والترمذى ٥٠٥/٤ وقال : حسن صحيح .

(٢) رواه أبو داود ٤٧٥/٤ .

توضيح بعض العلامات :

أولاً - الدخان :

وقد ورد ذكر الدخان فى قوله تعالى : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ { الدخان } .

قال القرطبى : « وممن قال إن الدخان لم يأتِ بعد : علىٌّ ، وابن عباس ، وابن عمر ، وأبو هريرة ، وزيد بن على ، والحسن ، وابن أبى مليكة ، وغيرهم .

وروى أبو سعيد الخدرى مرفوعاً أنه دخان يهيج بالناس يوم القيامة ، يأخذ المؤمن منه كالزكمة ، وينفخ الكافر حتى يخرج من كل مسمع منه .

وعن حذيفة قلت : يا نبى الله ، وما الدخان ؟ قال : هذه الآية : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ يملأ ما بين المشرق والمغرب . يمكث أربعين يوماً وليلة . أما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام . وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران ، يخرج الدخان من فمه ، ومنخره ، وعينيه ، وأذنيه ، ودبره » [١]

وهذا الدخان غير الدخان الذى نال قريشاً من القحط أيام الرسول ﷺ حتى كانوا يرون بينهم وبين السماء كهيئة الدخان من شدة الجوع .

ثانياً - المسيح الدجال :

سُمِّىَ المسيح : لأنه ممسوح العين اليمنى ، أو لأنه يمسح الأرض أى يقطعها فى أربعين يوماً . يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامنا هذه . كما ورد فى صحيح مسلم .

والدجال من الدَّجْل ، وهو التغطية والكذب ، يقال : دجل البعير بالقطران إذا غطَّاه ، ودجل الإناء بالذهب إذا طلاه ، وسُمِّىَ الكذاب دجالاً ، لأنه يُغطِّى الحق بباطله .

---

(١) تفسير القرطبى ١٦/ ١٣٠ .

أخرج مسلم قصة تميم الدارى من حديث فاطمة بنت قيس أن النبى ﷺ خطب ، فذكر أن تميمًا الدارى ركب فى سفينة مع ثلاثين رجلاً من قومه ، فلعب بهم الموج شهراً ، ثم نزلوا إلى جزيرة ، فلقيتهم دابة كثيرة الشعر ، فقالت لهم: أنا الجسَّاسة . ودلّتهم على رجل فى الدَّير ، قال : فانطلقنا سِراعًا ، فدخلنا الدير ، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خَلْقًا ، وأشد وِثاقًا ، مجموعة يداه إلى عنقه بالحديد . فقلنا : ويلك ما أنت ؟ فذكر الحديث .

وفيه أنه سألهم عن نبى الأميين هل بعث ؟ وأنه قال : إن يطيعوه فهو خير لهم ، وأنه سألهم عن بحيرة طبرية ، وعن عين زغر ، وعن نخل بيسان [١] .

وفيه أنه قال : إنى مخبركم عنِّى . أنا المسيح . وإنى أوشك أن يُؤذن لى فى الخروج ، فأخرج فأسير فى الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها فى أربعين ليلة غير مكة وطَيْبَة .

وحديث مسلم هذا يدل على أن الدجال كان موجوداً فى عهد النبىِّ ﷺ ، وأنه محبوس فى بعض الجزائر .

وأما وقت خروجه ، فقد روى مسلم فى حديث النَّوَّاس أنه يخرج عند فتح المسلمين القسطنطينية .

وأما سبب خروجه ، فأخرج مسلم فى حديث ابن عمر عن حفصة أنه يخرج من غضبة يغضبها .

ويخرج من قبل المشرق جزمًا من خراسان . كما أخرجه أحمد والحاكم من حديث أبى بكر ، أو من أصبهان كما أخرجه مسلم . ولعله يخرج من خراسان ثم يتجه غربًا ، فيمرُّ بأصبهان ، فيتبعه من يهودها سبعون ألفا عليهم الطيالسة. كما فى صحيح مسلم .

---

(١) زغر وبيسان : قريتان بالشام ، وما أخبر به تميم وافق ما سبق أن أخبرهم به النبى ﷺ .

وعندما يخرج يَدَّعى الإيمان والصلاح ، ثم يَدَّعى النبوة ، ثم يَدَّعى الألوهية.

وأما عن وقت هلاكه فأخرج مسلم أنه يهلك بعد ظهوره على الأرض كلها إلا مكة والمدينة ، ثم يقصد بيت المقدس ، فينزل عيسى فيقتله .

ومن صفاته أنه قصير جسيم ، أحمر الوجه ، أعور العين اليسرى ، قد غطتها جلدة عظيمة ، وعينه اليمنى جاحظة . وشعر رأسه شديد الجعودة ، بشع المنظر ، منفرج الرجلين فى المشىٍ .

وما ورد فى صحيح البخارى بشأنه :

● عن أنس بن مالك قال : قال ﷺ : « يجىء حتى ينزل فى ناحية المدينـة، ثم تَرْجُفُ المدينة ثلاث رجفات ، فيخرج إليه كل كافر ومنافق ».

● وعن أبى بكر عن النبى ﷺ قال : « لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال ، ولها يومئذ سبعة أبواب ، على كل باب ملكان » .

● وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قام رسول الله ﷺ فى الناس ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال : « إنِّى لأنذركموه، وما من نبىّ إلا وقد أنذر قومه ، ولكنى سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبى لقومه : إنه أعور ، وإنَّ الله ليس بأعور » .

● وعن عروة أن عائشة رضى الله عنها قالت : « سمعت رسول الله ﷺ يستعيذ فى صلاته من فتنة الدجال » .

● وعن حذيفة عن النبىَ ﷺ قال فى الدجال : « إنَّ معه ماء وناراً ، فناره ماء بارد ، وماؤه نار » .

● وعن أبى سعيد قال: حدثنا رسول الله ﷺ يومًا حديثًا طويلاً عن الدَّجَّال ، فكان فيما يحدثنا به أنه قال : « يأتى الدَّجَّالُ - وهو مُحَرَّم عليه أن يدخل نقاب المدينة - فينزل بعض السِّباخ التى تلى المدينة ، فيخرج إليه يومئذ

رجل هو خير الناس - أو من خير الناس - فيقول : أشهد أنك الدَّجَّالُ الذى حدَّثنا رسولُ الله ﷺ ، فيقول الدجال : أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته . هل تشكُّون فى الأمر ؟ فيقولون : لا . فيقتله ، ثم يحييه ، فيقول : والله ماكنت فيك أشد بصيرة منِّى اليوم : فيريد الدَّجَّال أن يقتله ، فلا يسلط عليه »[1] .

ثالثًا : دابة الأرض :

ورد ذكر الدابة فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ { النمل } .

قال المفسرون : إنها فصيل ناقة صالح عليه السلام ، لِما ذكره أبو داود الطيالسى فى مسنده عن حذيفة قال : ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال :

« لها ثلاث خرجات من الدَّهر : فتخرج فى أقصى البادية ، فلا يدخل ذكرها القرية - يعنى مكة - ثم تكمن زمانًا طويلاً ، ثم تخرج خرجة أخرى دون ذلك ، فيفشو ذكرها فى البادية ، ويدخل ذكرها القرية - يعنى مكة - قال رسول الله ﷺ : ثم بينما الناس فى أعظم المساجد على الله حرمة . خيرها وأكرمها على الله المسجد الحرام لم يَرُعْهم إلا وهى ترغو بين الركن والمقام . تنفض عن رأسها التراب . فارفضَّ الناس منها شتَّى ومعًا ، وتثبت عصابة من المؤمنين ، وعرفوا أنهم لن يعجزوا الله . فبدأت بهم فجلت وجوهم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدُّرى ، وولَّت فى الأرض لا يُدركها طالب ، ولا ينجو منها هالك ، حتى إنَّ الرجل ليتعوذ منها بالصلاة ، فتأتيه من خلفه ، فتقول : يا فلان ، الآن تُصلِّى ؟ فتُقبل عليه ، فتَسِمه فى وجهه ، ثم تنطلق » ارفض: أى تفرَّق الناس.

---

(١) فتح البارى : كتاب الفتن ١٣/٨٩-١٠١

والذى يدل على أنها فصيل ناقة صالح فى الحديث قوله ﷺ « وهى ترغو» والرغاء إنما هو للإبل .

واختُلف من أى موضع تخرج : فقال عبد الله بن عمر : تخرج من جبل الصفا بمكة يتصدع ، فتخرج منه . وقال عبد الله بن عمرو نحوه وقال : لو شئت أن أضع قدمى على موضع خروجها لفعلت .

وروى فى خبر عن النبى ﷺ : « أن الأرض تنشق عن الدابة وعيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون من ناحية المسعى ، وأنها تخرج من الصفا ، فَتَسِم بين عينىَ المؤمن : هو مؤمن . سِمة كأنها كوكب دُرِّى ، وتَسِمُ بين عينى الكافر نكتة سوداء : كافر » .

وهذه الدابة تكلم الناس بصوت يسمعه من قرب ومن بعد قائلة : ﴿ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ أى بخروجى . وقرىء : تَكْلِمُهم من الكَلْم وهو الجرح، فهى تُكَلِّم المؤمن ، وتَكْلِم الكافر والفاجر ، أى تجرحه [1]

رابعًا : طلوع الشمس من مغربها :

ذُكر طلوع الشمس من مغربها فى حديث رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناس ، آمن من عليها ، فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها ، لم تكن آمنت من قبل » رواه الشيخان .

وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : حفظت من رسول الله ﷺ حديثًا لم أنسه بعد ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى على اثرها قريبًا » .

---

(١) تفسير القرطبى ١٣/٢٣٥ بتصرف ، وانظر تفسير ابن كثير ٣/٣٧٤ .

أى أول الآيات التى ليست مألوفة ، وإن كان الدَّجَّال ، ونزول عيسى عليه السلام من السماء ، وخروج يأجوج ومأجوج قبل ذلك . فكل ذلك أمور مألوفة؛ لأنهم بشر ، ومشاهدة مثلهم مألوفة ، أمَّا خروج الدابة بشكل غريب غير مألوف ، ثم مخاطبتها الناس ، ووَسْمُها إياهم بالإيمان أو الكفر ، فأمر خارج عن العادة .

وذلك أول الآيات الأرضية ، كما أن طلوع الشمس من مغربها على خلاف عادتها المألوفة أول الآيات السماوية .

خامسًا - نزول عيسى ابن مريم من السماء :

ثبت رفع عيسى بالقرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ {آل عمران/٥٥} . والمراد من الوفاة فى الآية :النوم ، فقد رُفع إلى السماء نائمًا . وقد جاءت الوفاة بمعنى النوم فى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ {الزمر/٤٢} وفى قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ {الأنعام/٦٠} وكان رسول الله ﷺ إذا استيقظ من نومه يقول : « الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور ».

أشار القرآن إلى نزوله فقال : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ { الزخرف } .

فقوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ أى يعلم قربها بنزوله عند المنارة البيضاء شرقى دمشق ، واضعًا كفيه على أجنحة ملكين كما فى صحيح مسلم .

وقرىء ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعَلَمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ أى أمارة لها ، فلا تشكُن فى قيامها .

وأحاديث نزوله صحيحه متواترة ، رواها أكثر من عشرة من الصحابة .

وروى البخارى عن رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، ليوشكنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَمًا عـدلاً ، فـيكسرِ الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة خيراً من الدنيا وما فيها » ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ { النساء } .

أى قبل موت عيسى بعد نزوله من السماء وقبل القيامة . فلا يبقى كتابنى إلا آمن به .

وفى رواية قال أبو هريرة : سمعت رسول الله ص يقول : « والذى نفس ابى القاسم بيده ، لينزلن عيسى بن مريم إماماً مقسطا ، وحكماً عدلاً ، فيكسرن الصليب ، ويقتلن الخنزير ، وليصلحن ذات البين ، وليذهبن الشحناء ، وليعرضن المال فلا يقبله أحد ، ثم لئن قام على قبرى فقال : يامحمد لأجبته »[1] .

وقد وصفه ﷺ فى بعض أحاديثه منها ما رواه أبو هريرة أن النبى ﷺ قـال : (الأنبياء إخوة لعلات ، أمهاتهم شتَّى ، ودينهم واحد . وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم ؛ لأنه لم يكن بينى وبينه نبى ، ولأنه نازل . فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجلاً مربوعاً إلى الحمرة والبياض ، عليه ثوبان ممصران . كأن رأسه يقطره ، وإن لم يصبه بلل : فيدق الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويدعو الناس إلى الإسلام ، فيهلك الله فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال ، وتقع الأمنة على الأرض حتى يرتع الأسود مع الإبل ، والنمار مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيَّات لا تضرهم ، فيمكث أربعين سنة ، ثم يتوفى ، ويصلى عليه المسلمون)[2] .

---

(١) رواه أبو بعلى ، ورجاله رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٨/٢١١ .

(٢) رواه أحمد فى السنة ١/٤٠٦ ثوبان ممصران : أى فيهما صفرة .

سادسًا - يأجوج ومأجوج :

ورد ذكرهم فى قول الحق : ﴿ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾[1] { الكهف } .

وجاء ذكرهم أيضًا فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾[2] {الأنبياء}.

وروى البخارى عن زينب ابنة جحش أن رسول الله ﷺ دخل عليها يومًا فزعًا يقول : « لا إله إلا الله . ويل للعرب من شر قد اقترب . فُتِحَ اليوم منردم يأجوج ومأجوج مثل هذه » وحلق بإصبعيه الإبهام والتى تليها . قالت زينب ابنة جحش : فقلت يا رسول الله ، أفنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم اذا كثر الخبث »[3] أى الزنا والفجور والفواحش .

---

(١) يأجوج ومأجوج : قبيلتان من ذرية يافث بن نوح عليه السلام . خَرْجًا أى : جُعْلاً من المال - سداً : أى حاجزاً ، فلا يصلون إلينا - ردمًا : أى حاجزاً حصينًا متينًا - زُبَر الحديد: قطعه العظيمة - الصَّدفين : جانبى الجبلين - قطراً : أى نحاسًا مذابًا - أن يظهروه : أن يَعْلوا ظهره - نَقْبًا : خرقا وثقبا- جعله دكاء : أى أرضًا مستوية .

(٢) الحدَب : المرتفع من الأرض - يَنْسِلون : يسرعون النزول - شاخصة أبصارهم : أى مرتفعة لا تكاد تطرف .

(٣) ورواه مسلم فى الفتن ٢٢٠٨/٤

وأخرج ابن ماجه عن رسول الله ﷺ : « إنَّ يأجوج ومأجوج يحفِرون كل يوم حتى إذا كادوا يَرَون شعاعَ الشمس ، قال الذى عليهم : ارجعوا فسنحفِره غداً ، فيعيدُه الله أشدَّ ما كان ، حتى إذا بلغت مدَّتُهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله تعالى ، فاستثنوا ، فيعودون إليه، وهو كهيئته حين تركوه ، فيحفرونه ، ويخرجون على الناس ، فينشِفُون الماء ويتحصن الناس منهم فى حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء ، فترجع عليها الدم الذى اجفظَّ ، فيقولون : قهرنا أهل الأرض ، وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله نغفًا فى أقفائهم فيقتلهم بها »(١) .

وورد فى حالهم عند خروجهم ما أخرجه مسلم من حديث النواس بن سمعان بعد ذكر الدَّجَّال وقتله على يد عيسى قال :

« ثم يأتى عيسى ابن مريم قومٌ قد عصمهم الله منه - أى من الدجال - فيمسح عن وجوههم ، ويحدِّثُهم بدرجاتهم فى الجنة ، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى : إنى قد أخرجت عباداً لى لا يَدانِ لأحد بقتالهم ، فحرِّزْ عبادى إلى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فيمرُّ أوائلهم على بحيرة طبريَّة ، فيشربون ما فيها ، ويمرُّ آخرهم . فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء . ويُحْصَرُ نبى الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأسُ الثَّورلأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغَب نبيُّ الله عيسى وأصحابه

فيرسِل عليهم النغف فىَ رقابهم ، فيصبحون فَرْسَى كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبى الله عيسى وأصحابه إلى الأرض ، فلا يجدون فى الأرض موضع شبر إلا ملاءه ذَهَمُهُم ونتنُهم . فيرغب نبيُّ الله عيسى وأصحابه إلى الله،

---

(١) سنن ابن ماجه ٢/١٣٦٤ (ينشفون الماء) أى يشربونه (اجفظ) أى ملأها . (النغف) دود يكون فى أنوف الإبل والغنم .

فيرسل طيراً كأعناق البُخْت فتحملهم ، فتطرحهم حيث شاء الله . ثم يُرسل الله مطراً ، لا يكنُّ منه بيت مدر ولا وبر ، فيغسل الأرض ، حتى يتركها كالزَّلفة ، ثم يقال للأرض انبتى ثمرتك ، ورُدِّى بركتك . فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ، ويستظلون تحتها بقحفها ، ويبارك فى الرِّسْل : حتى إن اللِّقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس ، واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس ، واللقحة من الغنم لتكفى الفَخْذ من الناس . فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيبة ، فتأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحُمُر ، فعليهم تقوم الساعة »[1] .

---

(١) رواه مسلم فى الفتن ٢٢٥٣/٤ (فيمسح على وجوههم) : إما تبركًا ، أو إشارة إلى كشف ما هم فيه من الشدة والخوف (لا يدان لأحد بقتالهم) : تثنية يد ، أى لاقدرة ولا طاقة لأحد . (فحرز عبادى إلى الطور) : حصنهم واحفظهم . (الحدب): الموضع المرتفع . (ينسلون) : يسرعون . (يرغب) : يبتهل ويدعو . (فرسى) : قتلى . مفرده فريس . كقتلى وقتيل . (زهمهم) : دسمهم. (البخت) : الجمال طوال الأعناق . (لا يكن) : لا يمنع . (المدر) : الطين الصلب . (الزلفة) : المرآة . (العصابة) : الجماعة . (قحفها) : مقعر قشرها . (الرِّسل) : اللبن . (اللقحة) : حديثة الولادة. جمعها : لقح . كبركة وبرك . (الفئام) : الجماعة الكثيرة . (الفخذ): الجماعة من الأقارب . دون البطن ، والبطن دون القبيلة . (تهارج الحمر) : أى يجامع الرجال النساء علانية أمام الناس . والهَرْج: الجماع ، يقال : هرج زوجته : أى جامعها . يهرجها بتثليث الراء .

الفصل السابع

اليــوم الآخــر

مقدمة عن حياة البرزخ :

روح الإنسان : جسم لطيف . يحل فى الجسد ، فيجعله يشعر ، ويتحرك، ويفكر . وللروح مع الجسد تعلقات مختلفة : فتتعلق به جنيناً فى بطن أمه ، وتتعلق به فى اليقظة بعد الولادة ، وتتعلق به أثناء النوم ، وتتعلق به فى عالم البرزخ بعد الموت ، وتتعلق به يوم القيامة ، ولكل حالة خصائصها .

والموت عبارة عن : انقطاع صلة الروح بالجسد ، لتنتقل من عالم إلى عالم آخر . فليس الموت عدماً أو فناء للروح .

وملك الموت هو الذى يتولى إخراج الروح من الجسد ، وله أعوان يساعدونه.

ولا يبقى من الجسد إلا عجْب الذَّنب ، وهو عظم صغير فى آخر سلسلة الظهر . قال ﷺ :« كل ابنُ آدمَ يأكله الترابُ إلا عَجْبَ الذَّنب . منه خُلق ، وفيه يُركب »[1] وهو كالروح مستثنى من العموم فى قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ {الرحمن} وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ {القصص/٨٨} .

وبعد انصراف الناس من دفن الميت . يأتيه ملكان : أحدهما (مُنكر) ، والآخر (نكير) فيقعدانه ، ويعيد الله إليه روحه ، فيسمع ويتكلم ، فيسألانه: مَن ربك ؟ وما دِينُك ؟ وما تقول فى الرجل المبعوث فيكم ؟

أما المؤمن فيقول : ربى الله ، ودينى الإسلام ، والرجل المبعوث فينا هو

(١) رواه مسلم فى الفتن ٤/٢٢٧ .

سيدنا محمد ﷺ . فيقولان له : انظر إلى مقعدك فى النار ، قد أبدلك الله به مكاناً فى الجنة . فيراهما جميعاً . ثم يقولان له : نم نومة العروس .

وأما المنافق أو الكافر ، فيقول: لا أدرى. فيقولان له : لا دريت ولا تليت. ويبدأ عذابه فى القبر .

وسؤال القبر للروح والجسد ، ولو أكلته السباع أو الحيتان ، أو التهمته النيران . فقبره المكان الذى يستقر فيه . والله على كل شىء قدير .

وكان النبى ﷺ إذا فرغ من دفن الميت ، وقف عليه ، فقال : « استغفروا لأخيكم ، واسألوا له التثبيت . فإنه الآن يُسأل »[1] .

وقد أشار القرآن إلى حياة البرزخ فقال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ {المؤمنون}.

وكذلك نعيم القبر وعذابه للروح والجسد معاً . فالقبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار .

وقد أشار القرآن الكريم إلى عذاب القبر فقال: ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ {غافر}

فقوله : ﴿ غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ أى فى عالم البرزخ ؛ لأن يوم القيامة لا غدو فيه ولا عشى ، ولا شروق ولا غروب وبقية الآية تتكلم عنه .

---

(١) رواه أبو داود فى الجنائز ٣/ ٥٥٠

وقال تعالى فى وصف حياة الشهداء فى عالم البرزخ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [آل عمران]

ومرَّ ﷺ على قبرين . فقال : « أما إنهما ليعذبان ، وما يعذبان فى كبير: أما أحدهما ، فكان يمش بالنميمة ، وأما الآخر ، فكان لا يستتر من بوله . قال: فدعا بعسيب رطب ، فشقَّه باثنين . ثم غرس على هذا واحداً ، وعلى هذا واحداً. ثم قال : لعله يخفف عنهما مالم ييبسا »[1] .

أولا : إمكان البعث :

أ - البعث أمر ممكن عقلا :

عرض القرآن الكريم لأدلة إمكان بعث الناس لمحاسبتهم فى كثير من سوره وآياته ، ونتناول هنا موضعين فقط :

الموضع الأول : من سورة الحج :

قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ

---

(١) رواه مسلم فى الإيمان ١/٢٤١

﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحج]

وقد اشتملت الآيات على دليلين على إمكان البعث :

الدليل الأول :

خلق الإنسان وتطوره فى هذه المراحل المختلفة المذكورة فى الآية والتى أشرنا إليها عند حديثنا عن دليل الخلق على وجود الله ، فمن قدر على خلق لإنسان على هذه الصورة العجيبة . وفى هذه الأطوار الدقيقة ، فهو لا شك أقدر على إعادته ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ .

الدليل الأخر :

دليل حسىّ يراه كل إنسان إذا نظر إلى الأرض الميتة التى لا زرع فيها ولا ثمر لعدم وجود مياه الرىّ ، فإذا نزل عليها عادت إليها الحياة فازدادت ، وانتفخت ، وأنبتت من كل صنف حسن نضير .

الموضع الآخر : من سورة يَس :

قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ {يس}

وقد اشتملت الآيات على أربعة أدلة :

الدليل الأول : من قدر على البدء قدر على الإعادة :

وذلك فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ إذ كل عاقل يعلم ضرورة أن من قدر على النشأة الأولى ، فهو على النشأة الأخرى أقدر ، وأنه لو كان عاجزاً عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز . ولمَّا كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق ، وعِلْمَه بتفاصيل خلقه ، قال : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ فإذا كان تام العلم ، كامل القدرة ، فكيف يتعذر عليه أن يُحيى العظام وهى رميم ؟

الدليل الثانى : من قدر على ايجاد الضد من ضده قدر على إعادة الإنسان.وذلك قوله تعاى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ فلا يظنُّ ظانٌّ أن الإنسان إذا مات ، وصارت عظامه رميمًا يابسا بارداً لا يمكن أن تعود إليه الحرارة ، والرطوبة مرة أخرى ، فإن الله أوجد من الشجر الأخضر الرطب البارد ناراً حارة ، وذلك كما لو أُخِذَ غصن من شجر المرخ الأخضر الرطب ، وضُرِبَ بغصن من شجر العفار الأخضر الرطب . فإنه تتقد منه النار ، كما يعرف ذلك أهل البادية ، فمن قدر على إخراج النار من لا نار، وإيجاد الحرارة من الرطوبة قادر على إحياء الإنسان .

الدليل الثالث : من قدر على الأكبر قدر على الأصغر من باب أولى :

وذلك قوله تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل ، فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر ، فمن قدر على حمل مائة كيلو فهو على حمل كيلو واحد أشد اقتداراً. فأخبر أن الذى أبدع السموات والأرض على عِظَم شأنهما ، وكبر حجمهما ، وعجيب خلقهما ، أقدر على أن يُحيى عظامًا قد صارت رميمًا ، كما قال فى موضع آخر : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ {غافر} .

الدليل الرابع : فعله لا يحتاج إلى آلة ولا معين :

وذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ ففعل الله تعالى ليس كفعل المخلوق الذى يحتاج إلى الآلات والوسائل ، وإلى من يعينه ويساعده فى الصنع ، فالحق تعالى إذا أراد شيئًا قال له : كن فإذا هو كائن كما أراده وشاءه جل فى علاه .

ثم ختم هذه الآيات المباركة بقوله ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

ب - البعث أمر سيقع فعلا :

وعرض القرآن لهذه القضية فى أكثر من موضع وقد أمر نبيه أن يُقسِم به جل فى علاه على وقوع البعث فى ثلاثة مواضع هى :

(١) ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ {يونس}

(٢) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ {سبأ/٣} .

(٣) ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ { التغابن } .

ثانيا : النفخ فى الصور :

ذُكِر النفخ فى الصُّور فى عشر آيات قرآنية ، فوجب الإيمان بذلك .

والصور : قَرْن من نور كهيئة البوق ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام [1] .

ويظهر من النصوص أنهما نفختان :

النفخة الأولـى : وتُسمَّى نفخة الصعق ، أو الفزع . ويشير إليها قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ {الزمر/٦٨} .

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾{ النمل } داخرين: صاغرين أذلاء.

وبهذه النفخة يموت كل من لم يذق الموت قبلها من الخلائقُ . أما من ذاق الموت ، أو لم يكتب عليه الموت ، فلا يموت موتة ثانية .

واختلف العلماء فى المستثنى فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ففى حديث أبى هريرة أنهم الشهداء عند ربهم يرزقون . إنما يصل الفزع إلى الأحياء. وهو قول سعيد بن جبير .

وقال الحسن استثنى طوائف من الملائكة يموتون بين النفختين .

وقال مقاتل : يعنى جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت .

وقيل : الحور العين ، وقال الضحاك : رضوان، والحور ، ومالك ، والزبانية.

النفخة الثانيـة : وتُسمَّى نفخة البعث ، أو النشر ، أو النشور ويشير إليها قوله تعالى :

- ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ { الزمر } .
- ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : ما الصور ؟ قال : قرن ينفخ فيه » رواه الترمذى وأبو داود . وهو الناقور المذكور فى قوله تعالى ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ ﴾ {المدثر} كما فسره ابن عباس - نقر : نفخ .

﴿ ... مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [يس]

- ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ﴿٩٩﴾ ﴾ [الكهف] .
- ﴿ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ﴿١٨﴾ ﴾ [النبأ] .

وبين النفختين تمرُّ مدة طويلة . فعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بين النفختين أربعون » قالوا : يا أبا هريرة أربعون يومًا ؟ قال: أبيْتُ . قالوا أربعون شهراً ؟ قال أبيْتُ : قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبيْت « ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل » [(١)] .

وقول أبى هريرة (أبيت) معناه : أبيت أن أجزم بأن المراد أربعون يومًا أو سنة أو شهراً : بل الذى أجزم به أنها أربعون مجملة .

وقد جاءت مفسرة من رواية غيره فى غير مسلم : أربعون سنة . وفى هذه المدة وبعد أن يطوى الله السموات بيمينه كطى السجل للكتب ، وبعد أن يطوى الأرض بشماله ويقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون ؟ يقول الحق ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ ؟

قال محمد بن كعب : " قوله سبحانه : ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ يكون بين النفختين حين فَنِىَ الخلائق ، وبقى الخالق ، فلا يرى غير نفسه مالكًا ولا مملوكًا ، فيقول : ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ فلا يجيبه أحد ، لأن الخلق أموات فيجيب نفسه فيقول ﴿ لله الواحد القاهر ﴾ لأنه بقى وحده ، وقهر خلقه "[(٢)] .

ثالثًا : الحـوض :

الحوض من الأمور التى أكرم الله بها أتباع نبينا محمد ﷺ الذين يموتون

---

(١) رواه مسلم فى الفتن ٤/ ٢٢٧٠

(٢) تفسير القرطبى ١٥/ ٣٠١

على التوحيد الخالص . وهذا الحوض يصله الماء من نهر فى الجنة يسمى : الكوثر ، وهو المذكور فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ ﴾ {الكوثر}.

وهذا الحوض يشرب منه المؤمنون بعد خروجهم من قبورهم عطاشا ، ومن شرب منه لا يظمأ بعدها أبداً ، ويكون شربه فى الجنة تنعمًا وتلذذاً ، وليس لإزالة العطش .

ولكل نبى حوض كما قال ﷺ : « إن لكل نبى حوضًا ، وإنهم يتباهَون أيهم أكثر واردة ، وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم واردة » .

وجاء فى صفته : « حوضى مسيرة شهر ، وزواياه سواء ، ماؤه أبيض مناللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه أكثر من نجوم السماء ، من شرب منه فلا يظمأ أبدا » [١] .

والأحاديث التى وردت فى الحوض تكاد تبلغ مبلغ التواتر ، وإن اختلفت فى سعته ، وفى بعض أوصافه ، ففى بعضها أن سعته مسيرة شهر ، وفى بعضها أنه مسيرة شهرين ، وبعضها يمثله بالمسافة بين مكة وأيلة . أو بالمسافة بين عدن وعمان ، أو بين صنعاء والمدينة ، أو بين المدينة وبيت المقدس ، والمقصود من كل ذلك أنه واسع إلى حد كبير ، ويريد الرسول ﷺ أن يُقرِّب الفهم من السامعين ، فيُمَثِّل لكل فريق بما يعرف ، فلا تعارض .

ويُصَدُّ عن هذا الحوض الكفار ، والمرتدون ، وأهل الزيغ والبدع . كما قال ﷺ : « تَرِدُ أمتى علىَّ الحوض ، وأنا أذود الناس عنه ، كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله . قالوا: يا نبى الله أتعرفنا ؟ قال نعم لكم سيما ليست لأحد غيركم . تردون علىَّ غراً محجلين من آثار الوضوء ، وليصدن عنى طائفة

(١) رواه البخارى ومسلم - الترغيب والترهيب ٤١٧/٤

منكم ، فلا يصلون ، فأقول : يارب هؤلاء من أصحابى فيجيبنى ملك فيقول : وهل تدرى ما أحدثوا بعدك »[1] .

رابعاً - الحشر :

هو جمع الخلائق يوم القيامة للحساب فوق الأرض المبدلة . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم] .

وقال ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء ، عفراء، كقُرْصَة التَّقِىِّ ، ليس فيها علم لأحد »[2] .

وقد ذكر الحشر فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع كما فى قوله تعالى:

- ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الكهف] .
- ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ [البقرة] .
- ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الملك] .
- ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ق] .

ويحشر كل من يحتاجون إلى الفصل بينهم من أنس ، وجن ، وبهائم ، ووحوش ، وغير ذلك . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ [التكوير] وقال: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الفرقان/١٧] . وقوله ﷺ: « حتى يقضى للشاة الجماء من الشاة القرناء » .

ويُحشر الناسُ يوم القيامة حُفاة عُراة . ففى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال النبى ﷺ : « يُحْشَرُ الناسُ يوم القيامة حفاةً عراةً غرْلاً.

---

(١) رواه مسلم فى الطهارة ٢٤٧/١

(٢) رواه مسلم فى صفات المنافقين ٤/ ٢١٥٠ العفراء : البيضاء إلى حمرة التى لم توطأ . قرصة التقى : الدقيق الحوارى . والحوارى هو لباب الدقيق . ليس فيها علم : أى علامة كبناء أو أثر .

قلت يارسول الله ، النساء والرجال جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : يا عائشة ، الأمر أشدُّ مِن أن ينظرَ بعضُهم إلى بعض » .

وفى رواية أنه أجابها بقوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ { عبس } .

وفى هذا المحشر تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سُكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد ، ويَعْظُم الهول ، ويشتد الكرب ، وتدنو الشمس من الرؤوس . كما ورد فى الحديث عن المقداد بن الأسود قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تُدْنَى الشمسُ يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل . فيكون الناسُ على قدر أعمالهم فى العَرَقِ ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حَقْوية ، ومنهم من يُلْجِمُه العرقُ إلجامًا ، قال : وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه » [(١)] .

وأخبر الله عن طول يوم الحشر بأنه كألف سنة مما تعدون ، وأخبر بأنه مقدار خمسين ألف سنة . ولا تنافى لأن المقصود بيان طول المدة ، كما أن اليوم يختلف باختلاف أحوال الناس ، فيرى الكافر أنه كخمسين ألف سنة ، ويرى الفاسق انه كألف سنة ، ويرى المؤمن أنه أخف من صلاة مكتوبة ، فقد جاء فى مسند الإمام أحمد :« قيل يا رسول الله ، يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . ما أطول هذا اليوم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، انه ليُخَفَّف على المؤمن ، حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا » .

---

(١) رواه مسلم فى الجنة وصفة نعيمها ٤/٢١٩٦ والحقو : الخِصر .

وهناك أقوام لا يشعرون بهول هذا اليوم ، لأن الله يُظِلُّهم فى ظله يوم القيامة . ذكرهم الرسول ﷺ فى قوله : « سبعة يظلهم الله تعالى فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ بعبادة الله ، ورجل قلبُه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابَّا فى الله ، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليًا ، ففاضت عيناه »[1] .

خامسًا - الشفاعة :

الشفاعة : طلب الخير من الغير للغير . وقد تنسب إلى الله تعالى كما فى قوله تعالى : ﴿ قل لله الشفاعة جميعا ﴾ فيكون معناها قبولها وعفوه تعالى عمن يشاء .

وقد ثبتت الشفاعة بالقرآن والسنة ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ { طه } .

والشفاعة نوعان : شفاعة سيدنا محمد ، وشفاعة غيره .

(١) أما شفاعته ﷺ ، فهى عامة وخاصة :

(أ) **أما شفاعته العامة** : التى هى من خصائصه ، فتكون حين يشتد الكرب يوم القيامة ، ويتمنى الخلق أن ينصرفوا من الموقف ولو إلى النار ، ويقولون : من يشفع لنا عند ربنا ليبدأ الفصل بين العباد ؟ ويذهبون إلى الأنبياء ليشفعوا ، ولكن كل نبى يعتذر ، ويتجه الجمع إلى خاتم الأنبياء ،

---

(١) رواه مسلم فى الزكاة ٢/٧١٥ فى ظله : أى فى ظل عرشه .

فيقول : أنا لها . أنا لها . فيشفع إلى الله ، فيقبل شفاعته ، ويبدأ فى الفصل بين العباد .

وهذه هى الشفاعة العظمى التى اختص بها سيدنا محمد ﷺ ، وهى المذكورة فى حديث « أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلى » .

وقال ﷺ : « ألا وأنا حبيب الله ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافع ، وأول مشفع ، يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حِلقَ الجنة ، فيفتح الله لى ، فيدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر ».

ويقول ﷺ : « لكل نبى دعوة قد دعاها لأمته ، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى » .

(ب) **وأما شفاعته الخاصة** : فتكون بإدخال قومٍ الجنةَ بغير حساب ، وتكون لمرتكب الكبيرة كما قال : « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى »(١) ولرفع درجات بعض المؤمنين فى الجنة فوق ما يقتضيه ثواب أعمالهم : وتخفيف العذاب عمن يستحق كعمه أبى طالب . فقد قال عنه ﷺ « لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة ، فيُجعل فى ضحضاح من نار . يبلغ كعبيه ، يغلى منه دماغه »(٢).

(٢) وأما شفاعة غيره ﷺ : فقد ذكرها فى قوله : « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء »(٣)

---

(١) رواه الترمذى فى ك صفة القيامة ب ما جاء فى الشفاعة ٤/٦٢٥

(٢) رواه مسلم فى الإيمان ١/١٩٥ وأصل الضحضاح : مارقٌ من الماء على وجه الأرض إلى الكعبين استعير فى النار .

(٣)رواه ابن ماجه ك الزهد ب ذكر الشفاعة ٢/١٤٤٣ .

وفى قوله ﷺ : « فى حديث الشفاعة الطويل : « فيشفع النبيون والملائكة والمقربون »[١] .

وفى قوله ﷺ : « إن الرجلَ من أمتى ليشفع للفئام من الناس ، فيدخلون الجنة بشفاعته ، وإن الرجل ليشفع للقبيلة من الناس ، فيدخلون الجنة بشفاعته، وإن الرجل ليشفع للرجل وأهل بيته ، فيدخلون الجنة بشفاعته »[٢].

وفى قوله ﷺ : « ما من رجل مسلم يموت ، فيقوم على جنازته أربعون رجلاً ، لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعهم الله فيه »[٣] .

وكل من هؤلاء يشفع على قدر درجته عند الله . قال ﷺ : « إنَّ من أمتى من يشفع للفئام حتى يدخلوا الجنة » رواه الترمذى .

وأما قوله : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ {البقرة/٤٨} فقد استثنى من ذلك العموم الشفاعة بإذنه فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ { طـه } وقوله : ﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ {سبأ/٢٣} .

وأما قوله تعالى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ فالمقصود بهم الكفاركما يظهر من الآيات التى قبلها قال تعالى: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ { المدثر }.

---

(١) رواه البخارى فى التوحيد – الفتح ١٣/٤٣١ .
(٢) مسند الإمام أحمد ٦٣/٣ و(الفئام) الجماعة الكثيرة، و(القبيلة) الجماعة من أب واحد.
(٣) مسلم فى الجنائز ٦١٥/٢

سادسًا - صحف الأعمال :

بعدما يقبل الله شفاعة المصطفى ﷺ ليبدأ الفصل بين العباد : توزع صحائف الأعمال على الخلق . يقول رسول الله ﷺ : « ما من مؤمن إلا وله كل يوم صحيفة ، فإذا طُويت وليس فيها استغفار ، طويت وهى سوداء مظلمة، وإذا طويت وفيها استغفار ، طويت ولها نور يتلألأ » .

هذه الصحف اليومية يُوصل بعضها ببعض يوم القيامة . فتصير كتابًا ، يَضُمُّ كل صغيرة وكبيرة ، مما عمل المرء . يقول تعالى : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ { الكهف } .

وورد أن ريحًا تطيُّر هذه الكتب من خزانة تحت العرش ، وتسلمها الملائكة لأصحابها . يقول تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ { الإسراء } .

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يُعْرَض الناسُ يوم القيامة ثلاث عرضات : فأمَّا عرضتان ، فجدال ومعاذير ، وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدى ، فآخذ بيمينه ، وآخذ بشماله » رواه الترمذى .

أما المؤمن فيأخذ كتابه بيمينه، يقول تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ ﴾ { الإنشقاق }.

ويقول : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحاقة] .

وأما الكافر ، فيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره . يقول تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحاقة] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإنشقاق] .

سابعاً - الحساب :

هو إطلاع الله العباد على أعمالهم خيراً كانت أو شراً ، قولاً كانت أو فعلاً أو اعتقاداً . يقول الله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾ [غافر] .

ويقول : ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء] .

ويقول ﷺ : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن عمله ماذا عمل به ، وعن ماله : من أين اكتسبه ، وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه » رواه الترمذى .

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لتؤدُّنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يُقادَ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء »(١) .

والناس تجاه الحساب ثلاثة أقسام : قسم يدخل الجنة بغير حساب ، وقسم يدخل النار بغير حساب ؛ لشدة غضب الجبار عليهم وعِظَمِ ذنوبهم ، وقسم يُوقف للحساب .

والحساب منه اليسير والعسير ، ومنه السرُّ والجهر ، ومنه ما هو بالعدل وما هو بالفضل .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « عُرِضَتْ علىَّ الأممَ ، فأجد النبى يمرُّ معه الأمة ، والنبى يمرُّ معه النَّفر ، والنبى يمرُّ معه العشرة ، والنبى يمرُّ معه الخمسة ، والنبى يمرُّ وحده ، فنظرت فإذا سوادُ كثير . قلت : يا جبريل ، هؤلاء أمتى ؟ قال : لا . ولكن انظر إلى الأفق . فنظرت ، فإذا سواد كثير . قال : هؤلاء أمتك ، وهـؤلاء سبعون ألفا قدامهم ، لا حساب عليهم، ولا عذاب . قلت : ولِمَ ؟ قال : كانوا لا يكتوون ، ولا يَسْتَرقُون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون . فقام عُكَّاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم . قال : اللهم اجعله منهم . ثم قام إليه رجل آخر قال : ادع الله أن يجعلنى منهم . قال : سبقك بها عكاشة » رواه الشيخان .

وقال ﷺ : « يدخـل الجنـة من أمتى سبعون ألفا ليس عليهم حساب . فقيل له : هلا استزدت ربك ؟ فقال : استزدته فزادنى مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا . فقيل هلاَّ استزدت ربك ؟ فقال : استزدته فزادنى ثلاث حثيات بيده الكريمة » .

---

(١) رواه مسلم فى البر ١٩٩٧/٤ والجلحاء التى لاقرن لها ، والحديث دليل على حشر البهائم : ولا يلزم من الحشر المجازاة بالثواب أو العقاب .

وعن عائشة أن النبي ﷺ قال : « ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك » . فقلت : يا رسول الله ، أليس قد قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « إنما ذلك العرض ، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب » .

يعنى أنه لو ناقش فى حسابه لعبيده ، لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولكنه تعالى يعفو ويصفح ، فهو من النقش الذى هو استخراج الشوكة ، والمراد من المناقشة الاستقصاء فى المحاسبة ، والمطالبة بالجليل والحقير ، وترك المسامحة . يقال انتقشت منه حقى : أى استقصيته .

ويشهد على الناس يوم الحساب : ألسنتهم ، وأيديهم ، وأرجلهم . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ ﴾ { النور } .

كما يشهد عليهم سمعهم ، وأبصارهم ، وجلودهم . قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠ ﴾ { فصلت } .

وعن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال : « هل تدرون مِمَّ أضحك ؟ » قال قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : « من مخاطبة العبد ربَّه . يقول : يارب ، ألم تُجرنى من الظلم ؟ قال يقول : بلى . قال فيقول : فإنى لا أُجيز على نفسى إلا شاهداً منِّى . قال فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً . قال : فيختم على فيه . فيقال لأركانه : انطقى . قال : فتنطق بأعماله . قال : ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام . قال فيقول : بعداً لكُنَّ وسُحْقًا . فعنكُنَّ كنت أناضل » [1] .

---

(١) رواه مسلم فى الزهد ٤/ ٢٢٨٠ (يقال لأركانه) أى لجوارحه .

ثامنًا - الميزان :

بعد أن يطلع كل إنسان على صحائف أعماله بما فيها من حسنات وسيئات، يبدأ وزن الأعمال ، ليعرف العبد مصيره . فالحساب لتقرير الأعمال ، والوزن لإظهار مقاديرها ؛ ليكون الجزاء بحسبها.

وقد ورد وزن الأعمال فى الكتاب والسنة ، وأجمعت عليه الأمة . فوجب الإيمان به . قال تعالى :

- ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) ﴾ [الأنبياء].
- ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) ﴾ [المؤمنون] .
- ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) ﴾ [القارعة].

والمراد بالموازين : الموزونات ، فجمع باعتبار تنوع الأعمال الموزونة ، ويمكن أن تكون هناك موازين متعددة بحسب نوع الأعمال ، والميزان له كفتان مشاهدتان . ولكن ما الذى يوضع فى الميزان ؟

المتتبع للأحاديث النبوية يجد أن الذى يوزن هو الأعمال ، والعامل نفسه ، وصحائف الأعمال ، وإليك الأدلة :

(١) فمما يدل على أن الأعمال توزن ، وإن كانت أعراضًا إلا أن الله يظهرها فى صورة قابلة للوزن . فهو على كل شىء قدير :

(أ) عن أبى مالك الأشجعى قال : قال رسول الله ﷺ : « الطهور شطر

الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان »[1] .

(ب) قوله ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، حبيبتان إلى الرحمن ، ثقيلتان فى الميزان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »[2].

(٢) ومما يدل على أنَّ العامل نفسه يوزن :

(أ) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إنه ليأتى الرجُلُ العظيمُ السمين يوم القيامة ، لا يزن عند الله جناح بعوضة » . وقال : اقرءوا إن شئتم: (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنًا)[3] .

(ب) وعن ابن مسعود أنه كان يجنى سواكًا من الأراك ، وكان دقيق الساقين ، فجعلت الريح تكفؤه ، فضحك القوم ، فقال رسول الله ﷺ : مِمَّ تضحكون ؟ قالوا : يا نبيَّ الله من دقة ساقيه . فقال : والذى نفسى بيده ، لهما أثقل فى الميزان من أحد » رواه أحمد .

(٣) ومما يدل على أن صحائف الأعمال توزن حديث البطاقة : وهو ما رواه عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله سيخَلِّص رجلاً من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل مدُّ البصر ، ثم يقول له : أتنكر من هذا شيئًا ؟ أظلمتك كتبتى الحافظون؟ قال : لا ياربِّ . فيقول : ألك عذر ، أو حسنة ؟ فيُبْهَت الرجل . فيقول : لا ياربِّ . فيقول : بلى . إنَّ لك عندنا حسنة واحدة ، لا ظلم اليوم عليك . فتخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . فيقول :

---

(١) رواه مسلم فى الطهارة ٢٠٣/١ والطهور بضم الطاء : الفعل الذى هو المصدر ، وبفتح الطاء : الماء الذى يتطهر به . وكذا الوُضوء والوَضوء .

(٢) رواه مسلم فى الذكر والدعاء ٢٠٧٢/٤

(٣) رواه مسلم فى صفة القيامة ٢١٤٧/٤

أحضروه . فيقول : يارب . ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال : إنك لا تظلم . قال : فتوضع السجلات فى كفة ، والبطاقة فى كفة ، قال : فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، و لا يثقل مع اسم الله شىء » رواه الترمذى .

تاسعاً - الصراط :

بعدما ينتهى وزن الأعمال والحساب ، ويعرف كُلٌّ نتيجةَ عمله ، يأخذ الخلق طريقهم إلى النعيم أو الشقاء ، فيمرون على الصِّراط الذى يوصلهم إلى نهايتهم .

والصراط جسر ممدود على ظهر جهنم تَرِده جميع الخلائق ما عدا طائفة من الكفار ، يعجل بإلقائهم فى جهنم من الموقف .

وقد يراد بالصراط الدين كما فى قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾ {الفاتحة} وقوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ﴾ {الأنعام/١٥٣} وحديثنا هنا عن الصراط بالمعنى الأول.

واختلف المفسرون فى المراد بالورود المذكور فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ٧١ ﴾ { مريم } . والأظهر أنه المرور على الصراط المستقيم .

وفى الصحيح أنه ﷺ قال : « والذى نفسى بيده ، لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة » قالت حفصة : فقلت يا رسول الله ، أليس الله يقول : ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ ﴾ فقال : « ألم تسمعيه قال : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ٧٢ ﴾ { مريم } » .

أشار ﷺ إلى أنَّ ورود النار لا يستلزم دخولها ، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله ، بل تستلزم انعقاد سببه ، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ، ولم

يتمكنوا منه ، يقال : نجّاه الله منهم .

وقد ورد فى صفة الصراط ما رواه مسلم فى حديث طويل جاء فيه قوله ﷺ : « ثم يُضْرَبُ الجسْرُ على جهنم ، وتَحلُّ الشفاعة ، ويقولون : اللهم سلّم سلّم . قيل : يا رسول الله ، وما الجسر ؟ قال : دَحْضُ مَزِلَّة ، فيه خطاطيف، وكلاليب ، وحَسَكٌ تكون بنجد ، فيها شُويكة . يقال لها السعدان. فيمرُّ المؤمنون كطرف العين ، وكالبرق ، وكالريح ، وكالطير ، وكأجاويد الخيل، والركاب : فناجٍ مُسَلَّم، ومَخْدُوش مُرْسَل ، ومَكدُوس فى نار جهنم »[١].

وفى رواية له : « ويضرب الصراط بين ظهرى جهنم ، فأكون أنا وأمتى أول من يُجيز ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرُسُل . ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلّم سلّم . وفى جهنم كلاليب مثل شواك السَّعْدان . هل رأيتم السعدان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله . قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلا الله ، تخطف الناس بأعمالهم . فمنهم المؤمن . بَقِىَ بعمله ، ومنهم المُجازى حتى يُنَجَّى » .

وروى أيضًا عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « بلغنى أن الجِسْر أدقُّ من الشعر ، وأحدُّ من السَّيف » .

ويمرُّ المؤمنون على الصراط ، ونورهم يسعى بين أيديهم ، لا يخافون ، ولا

---

(١) رواه مسلم فى الإيمان ١٦٩/١ . يضرب الجسر : أى يمد الصراط . تحل الشفاعة : أى يؤذن بشفاعة الملائكة والنبيين والمؤمنين . دحض مزلة : بمعنى واحد وهو الموضع الذى تزل فيه الأقدام . الكلاليب : جمع كلوب : وهى حديده معطوفة الرأس يعلق فيها اللحم ، وتوضع فى التنور . والحسك شوك صلب . وأجاويد الخيل : من إضافة الصفة إلى الموصوف . وأجاويد جمع أجواد ، وهو جمع جواد ، وهو الجيد الجرى . والركاب : الابل واحدتها راحلة من غير لفظها . فناجٍ مسلم الخ أى أنهم ثلاثة أقسام : قسم مسلم فلا يناله شىء أصلاً ، وقسم يخدش ثم يرسل فيخلص . وقسم يكردس أى يدفع من الخلف . فيسقط فى جهنم .

يتعثرون. قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) ﴾ { الحديد } .

وروى البيهقى بسنده عن مسروق عن عبد الله قال : « يجمع الله الناس يوم القيامة » إلى أن قال : « فيعطون نورهم على قدر أعمالهم . فمنهم من يُعطى نوره مثل الجبل بين يديه ، ومنهم من يُعطى نوره دون ذلك ، ومنهم من يُعطى نوره مثل النَّخلة بيمينه ، ومنهم من يُعطى دون ذلك ، حتى يكون آخر ذلك من يُعطى نوره على إبهام قدمه ، يُضيىء مرة ، ويَطْفأ مرة ، فإذا أضاء قدَّم قدمه ، وإذا طَفِىء قام ، ويمرُّون على الصراط كحد السيف ، دَحْضٌ مَزَلَة. فيقال لهم : امضوا على قدر نوركم . فمنهم من يمرُّ كانقضاض الكوكب ، ومنهم من يمرُّ كالطرف ، ومنهم من يمرُّ كالريح . ومنهم من يمر كشدِّ الرجل ، يرمل رملاً ، فيمرُّون على قدر أعمالهم ، حتى يمرَّ الذى نوره على إبهام قدمه. تخرُّ يد ، و تعلق يد ، وتخر رجل ، وتعلق رجل ، وتصيب جوانبَه النار ، فيخلصون ، فإذا خلصوا قالوا : الحمد لله الذى نجَّانا منكِ بعد أن أراناك ، لقد أعطانا الله ما لم يُعْطِ أحداً » .

وقد اشتبه الأمر على بعض المعتزلة ، فظنوا أن هناك تعارضًا فى أوصاف الصراط ، فلم يعترفوا به على حقيقته ، وصرفوه عن ظاهره ، وقالوا : المراد به طريق الجنة وطريق النار .

وقال أهل السنة : إنَّ حقيقة الصراط ممكنة . كما جاءت فى الأحاديث النبوية ، وليس هناك ما يدعو إلى التأويل ، وصرف النصوص عن ظاهرها ، واختلاف أوصاف الصراط فى الضيق والسعة ، إنما هو بحسب أحوال المارِّين

عليه ، ونحن فى الدنيا نشعر بمثل هذا . فعند الاطمئنان النفسى نرى الطريق واضحة واسعة . وعند الحزن والشدة نراها ضيقة مغلقة . والله أعلم .

عاشراً - الجنة والنار :

١ - الجنـة : دار الثواب التى أعدَّها الله للمؤمنين الصالحين ولعصاة المؤمنين بعد أن يقضوا ما عليهم فى جهنم ، أو يعفو الله عنهم ، ولأطفال المؤمنين والكافرين الذين ماتوا دون البلوغ . وهى فوق السماء السابعة عند سدرة المنتهى . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ ﴾ {النجم} .

وهى سبع درجات ، بعضها فوق بعض : الفردوس ، وعدْن ، والخُلد ، والنعيم ، والمأوى ، ودار السلام ، ودار الجلال . وأفضلها الفردوس .

ولعل هذه الأسماء تطلق عليها كلها ، وإن اختلفت درجاتها : فهى الفردوس ؛ لأن الفردوس هو البستان الذى يجمع كل ما يكون فى البساتين . وهى عدن أى إقامة ، وهى دار الخلود ؛ لخلودها وخلود مَن فيها . وهى جنة النعيم ؛ لوجود أنواع النعيم فيها ، وهى جنة المأوى ؛ لأن أهلها يأوون إليها ، وهى دار السلام ؛ لأن من دخلها يَسلم من كل أذى ، وهى دار الجلال ؛ لظهور عظمة الله وجلاله فى خلقها .

ودرجاتها كلها متصلة بمقام الوسيلة ، والدرجة الرفيعة ، لينعم جميع أهل الجنة بمشاهدة سيدنا محمد ﷺ .

وهو أول من يدخلها ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

« أنا أكثرُ الأنبياءِ تَبعًا يومَ القيامة ، وأنا أولُ من يَقْرَعُ بابَ الجنة »[1] .

وللجنة ثمانية أبواب روى سهل بن سعد رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: « فى الجنةِ ثمانيةُ أبواب، فيها باب يُسمى الريَّان. لا يدخله إلا الصائمون »[2].

ومفتاحها (لا إله إلا الله) عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « مفاتيح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله »[3] .

وقد أفاضت الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية فى وصف نعيم الجنة ولذاتها ففيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، وفيها فاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، ويسقون من رحيق مختوم ، ومن عين فيها تسمى سلسبيلاً ، وفيها أنهار الماء ، واللبن ، والخمر ، والعسل .

ويلبسون الحرير، والسندس، والإستبرق، ويحلون الذهب، والفضة، واللؤلؤ.

وزوجاتهم عذارى أبكار دائمًا ، والحور العين لم تمتد إليهم يد .

وقد نزع الله من صدورهم الغِلَّ والسوء ، وجعلهم إخوانًا متحابين .

واقرأ القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، لترى تفاصيل ذلك . وأكتفى بذكر حديث نبوى واحد :

عن أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال : « إنَّ اللهَ يقول لأهل الجنة : يا أهلَ الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسَعْدَيك ، والخيرُ فى يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ومالنا لا نرضى يارب ، و قد أعطيتنا مالم تُعط أحداً مِن خلقِك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك ؟ فيقولون : ياربِّ ، وأىُّ .

---

(١) رواه مسلم فى الإيمان ١/١٨٨

(٢) رواه البخارى فى صفة أبواب الجنة - المتن ٤/١٤٥

(٣) رواه أحمد فى المسند ٥/٢٤٣

شيء أفضلُ من ذلك ؟ فيقول : أُحِلُّ عليكم رِضوانى ، فلا أسْخَطُ عليكم بعده أبداً »[1] .

٢ - النار : دار العذاب المعدَّة للكافرين ، وعصاة المؤمنين الذين لم يتوبوا ، ولم يعفُ الله عنهم إلى أن يأمر بخروجهم منها إلى الجنة .

وهى دركات بعضها تحت بعض . أعلاها جهنم لعصاة المؤمنين ، وتحتها لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية . ولجهنم سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء مقسوم .

وقد كثُر حديث القرآن الكريم ، والسنة المطهرة عما فى النار من ألوان العذاب المادى والمعنوى، فارجع إليها ، واقرأ، واعتبر ، واستعذ بالله من النار.

وأكتفى بذكر حديث نبوى واحد : عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « ناركم هذه التى يُوقِد ابنُ آدم جزء من سبعين جزءاً من حرِّ جهنم »[2].

٣ - الجنة والنار موجودتان الآن :

يدل على ذلك قوله تعالى عن الجنَّة : ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران] وعن النار : ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران] وقوله تعالى : ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر] وقصة آدم وإسكانه الجنة وخروجه منها .

وقد رأى رسول الله ﷺ الجنَّة ليلة الإسراء والمعراج . قال : « ثم انطلق بى جبريلُ حتى نأتىَ سِدرةَ المُنتهى ، فغشيها ألوان ما أدرى ما هى . قال : ثم أُدخِلتُ الجنَّةَ ، فإذا فيها جنابذُ اللؤلؤ ، وإذا تُرابُها المِسْكُ »[3] .

---

(١) رواه مسلم فى الجنة ٤/٢١٧٦
(٢) رواه مسلم فى الجنة ٤/٢٨٤٢
(٣) رواه مسلم فى الإيمان ١/١٤٩ والجنابذ جمع جُنبذَة وهى القُبَّة .

وقال ﷺ : «والذى نفسُ محمد بيده، لو رأيتم ما رأيت، لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً . قالوا : وما رأيت يا رسول الله ؟ قال : رأيت الجنة والنار»[1]. وقال ﷺ : « إذا مات الرجلُ ، عُرِضَ عليه مقعدُه بالغداة والعَشىِّ : إن كان من أهل الجنة فالجنة ، وإن كان من أهل النار فالنار . قال : ثم يقال : هذا مقعدُك الذى تُبعث إليه يوم القيامة » [2] .

جاء فى خطبته ﷺ فى صلاة الكسوف قوله: «رأيت فى مقامى هذا كلَّ شىء وُعِدتم. حتى لقد رأيتُنى أريدُ أن آخذَ قطفًا من الجنة حين رأيتمونى جعلتُ أتقدمُ. ولقد رأيتُ جهنم يَحطِم بعضُها بعضًا، حين رأيتمونى تأخرت »[3] .

وقال ﷺ : « إنما نسمةُ المؤمن طائر يعلَق فى شجر الجنة ، حتى يرجعه الله تبارك وتعالى إلى جسده يوم يبعثه » [4] .

وأما قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص/٨٨] فلا يتعارض مع اعتقاد وجود الجنة والنار الآن ، ولا يلزم فناؤهما؛ لأن المراد من الآية : كل شىء مما كتب الله عليه الهلاك هالك ، والجنة والنار خُلقتا للبقاء لا للفناء.

وقيل : كل شىء هالك إلا وجهه أى إلا جاهه . كما تقول : لفلان وجه فى الناس . أى جاه .

وقيل : إلا وجهه أى : ذاته تعالى . أو ما أريد به وجهه [5] .

وأما قوله تعالى عن امرأة فرعون : ﴿ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتًا فِي ٱلۡجَنَّةِ ﴾ [التحريم/١١] فيدل على أنَّ الله يزيد فى الجنة ما يشاء لمن يشاء .

---

(١) رواه مسلم فى الصلاة ١/ ٣٢٠.
(٢) رواه مسلم فى الجنة ٤/ ٢١٩٩
(٣) رواه مسلم فى الكسوف ٢/ ٦١٩
(٤) رواه أحمد فى المسند ٣/ ٤٥٥ يعلق : يأكل.
(٥) انظر تفسير القرطبى للآية ١٣/ ٣٢٢

وقوله تعالى عن الجنة : ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران/ ١٣٣] لا يعنى عدم وجودها الآن ، فليس مُلك الله منحصراً فى السموات والأرض .

٤ - الجنة والنار باقيتان :

قال تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [الطلاق/١١] .

وقد تكرر وصف القرآن للجنة بالخلود والأبدية فى ثمانى آيات .

ووُصفت النار بالخلود والأبدية فى ثلاثة مواضع :

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [النساء/١٦٨-١٦٩] .
- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب/٦٤-٦٥] .
- ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجـن] .

وأما قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [هـود] .

فالمقصود بالسموات والأرض المعلق خلود أهل الجنة والنار على بقائهما سماء الجنة وأرضها ، وسماء النار وأرضها ، وليس المقصود سماء الدنيا وأرضها ؛ لأنهما تبدلتا كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم].

وأما الاستثناء فى قوله : ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ فلإعلامهم بأنهم مع خلودهم هم فى مشيئته تعالى ، لا يخرجون عنها ، وأن بقاء الجنة والنار ومن فيهما ليس أمراً واجبًا لذاته ، ولا واجبًا عليه سبحانه ، وإنما هو أمر جائز فى ذاته تفضل الله به .

فليس الاستثناء لنفى تأييد الخلود ، بل لنفى وجوبه أو أن المشيئة ذكرت على سبيل التبرك ، مثل قوله تعالى : (لندخلن المسجد الحرام إن شاء الله أمنين) فذكر المشيئة للتبرك ، لأن وعده بدخولهم المسجد الحرام حق لا شك فيه .

وعن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « يُجَاء بالموت يوم القيامة، كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار . فيقال : يا أهل الجنة ، هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون ، وينظرون ، ويقولون : نعم . هذا الموت . قال ويقال : يا أهل النار ، هل تعرفون هذا ؟ قال فيشرئبون ، وينظرون ، ويقولون : نعم . هذا الموت . . قال : ويُؤمَر به فيُذبَح . قال ثم يقال : يا أهل الجنة ، خلود فلا موت. ويا أهل النار ، خلود فلا موت . قال : ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [مريم] وأشار بيده إلى الدنيا »[1].

حادى عشر – رؤية الله تعالى :

تَعوَّد علماء التوحيد أن يذكروا هذا الموضوع ضمن الحديث عن صفاته تعالى ، لا لأنه صفة واجبة لله ، ولكن لأنه من الأمور الجائزة على الله تعالى، ولكنى فضَّلت أن أجعله بعد الكلام عن الجنة ؛ لأنه أفضل نعيمها ، وأحبُّ

---

(١) رواه مسلم فى الجنة ٢١٨٨/٤ والفعل (نظر) إذا جاء مع حرف الجر .

شيء إلى أهلها . نسأل الله أن يجعلنا منهم .

١ - مذهب أهل السنة :

رؤية الله تعالى جائزة من الناحية العقلية فى الدنيا والآخرة ، وستحدُث للمؤمنين فى الجنة ، حيث يرون ربهم بأبصارهم بغير إحاطة ولاكيفية .

وأما وقوعها فى الدنيا ، فلم تحدُث لغير نبينا محمد ﷺ ليلة المعراج .

قال الإمام مالك : « إنما لم يُر الله فى الدنيا ؛ لأنه باق ، والباقى لا يُرى بالفانى : فإذا كان فى الآخرة ، ورزقوا أبصاراً باقية . رأوا الباقى بالباقى ».

وأما رؤيته تعالى فى المنام فجائزة . لكنها رؤية بالقلب بدون تحديد صورة معينة ، وإلا لكانت من الشيطان . بخلاف رؤيته ﷺ فى المنام ، فهى حقيقية؛ لأن الشيطان لا يتمثل به .

أدلة أهل السنة :

١ - قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ {القيامة} . (إلى) كان معناه المشاهدة بالعين ، وقد أضيفت إلى الوجوه التى هى محل البصر ؛ ليُفهم أن المراد نظر العين .

٢ - وقال تعالى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ { ق } .

قال عليّ بن أبى طالب ، وأنس بن مالك : هو النظر إلى وجه الله عز وجل.

٣ - وقال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ { يونس/٢٦ } .

فالحسنى: الجنة . والزيادة : النظر إلى وجهه الكريم . كما قال ﷺ : « إذا دخل أهلُ الجنة الجنة قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئًا أزيدُكم ؟ فيقولون : ألم تُبيض وجوهَنا ؟ ألم تُدخلنا الجنة ، وتنجِّنا من النار ؟ قال :

فيكشف الحجاب. فما أعطوا شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل »[1].

٤ – وقال تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المطففين] .

سئل الإمام الشافعى عن هذه الآية فقال : « لما أن حجب هؤلاء فى السخط ، كان فى هذا دليل على أن أولياءه يرونه فى الرضا » .

٥ – وعن أبى هريرة أن ناسًا قالوا لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **هل تُضارُّون فى رؤية القمر** ليلة البدر ؟ قالوا : لا يارسول الله . قال : **هل تُضَارُّون فى رؤية الشمس ليس** دونها سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله . قال : فإنكم ترونه كذلك »[2] .

والمراد تشبيه الرؤية بالرؤية فى الوضوح والظهور ، لا تشبيه المرئى بالمرئى.

وقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابيًا .

٦ – واستدل أهل السنة بدليل عقلى مؤداه : الله موجود ، وكل موجود تجوز رؤيته ، فالله تجوز رؤيته .

٢ – مذهب المخالفين فى الرؤية والرد عليهم :

ذهب الخوارج ، والشيعة الإمامية ، والمعتزلة إلى أن رؤية الله مستحيلة ، ولاتقع ، وقد استدلوا بما يلى :

١ – دليلهم العقلى : قالوا : للرؤية شروط يستحيل تحقيقها بالنسبة لله تعالى . بأن يكون المرئى جسمًا ، وفى حيز ومكان ، ومقابلاً للرائى ، وبينهما مسافة محدودة ، وهكذا .

---

(١) رواه مسلم فى الإيمان ١٦٣/١

(٢) رواه مسلم فى الإيمان ١٦٤/١ وتضارون بتشديد الراء أى تضارون غيركم بسبب تزاحمكم بسبب الرؤية ، وبتخفيفها أى : هل يصيبكم ضير أى ضرر .

أجاب أهل السنة :

إن هذه الشروط شروط عادية ، وليست عقلية ، وهى خاصة برؤية المخلوقات بعضها لبعض ، والله منزه عن ذلك ، فيمكن أن يُرى بغير هذه الشروط ، بأن يزيد فى بصر من شاء من عباده حتى يراه بغير إحاطة ولاكيفية .

٢ - استدلوا بقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف] .

فقوله تعالى: (لن ترانى) يفيد نفى رؤيته وامتناعها؛ لأن(لن) لتأبيد النفى.

أجاب أهل السنة :

قولكم : (لن) تفيد تأبيد النفى غير صحيح ، لأنها لاتفيده ، حتى لو قُيِّدت بالتأبيد ، فكيف إذا أطلقت ؟ وتأمل قوله تعالى عن الكافرين : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة/ ٩٥] أى الموت ، وقوله تعالى : وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف] أى يميتنا . فالآية الأولى تفيد أنهم لن يتمنوا الموت ، و الآية الأخرى تفيد أنهم يتمنونه . فهل أفادت (لن) تأبيد النفى مع وجود (أبدًا) أيضًا ؟

ولو كانت (لن) للتأبيد المطلق، ما جاز تحديد الفعل بعدها. وقد جاء محدداً فى قوله تعالى : ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ ﴾[يوسف/ ٨٠]. فثبت أن (لن) لاتقتضى النفى المؤبد .

كما أننا إذا تأملنا الآية جيداً ، و جدناها تدل على ثبوت الرؤية ، لاعلى استحالتها وامتناعها . فطلب موسى لها يدل على جوازها ؛ إذ كيف يطلب نبى من الأنبياء أمراً مستحيلاً ؟ ولم يُنكر الله عليه سؤاله ، ولو كانت

مستحيلة لقال الله : إنى لا أرى ، أو لا تجـوز رؤيتى ، أو لست بمرئى ، وما قال له : (لن ترانى) وهذا يدل على أنه مرئى ، لكن موسى لاتحتمل قواه رؤيته فى الدنيا لضعف قُوى البشر فيها . فإن الجبل رغم قوته وصلابته لم يثبت لما تجلى الله له ، فكيف بالإنسان الذى خُلق ضعيفًا ؟

٣ - استدلوا بقوله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام] .

قالوا : معنى الإدراك : الرؤية . وقد نفاه الله عنه ، فهو لايُرى .

أجاب أهل السنة :

بأن الإدراك غير الرؤية ، لأن معناه الإحاطة بالشىء ، وهو قدر زائد على الرؤية ، كما أننا نرى الشمس مثلاً ، ولا ندركها . أى لانحيط بها بأبصارنا ، فالله سبحانه يُرى ولايُدرك ، كما أنه سبحانه يُعلم ولا يُحاط به علمًا ، لكمال عظمته سبحانه .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى ﴾ [الشعراء/٦١-٦٢] .

فلم ينفِ موسى الرؤية. إنما نفى الإدراك. ونفى الأخص لايستلزم نفى الأعم .

كما أن (ال) فى كلمة (الأبصار) فى الآية للعموم ، وتقدُّم النفى على العموم يفيد سلب العموم . فالمعنى لاتدركه جميع الأبصار . بل يراه بعضها دون بعض ، فيراه المؤمنون دون الكافرين .

رؤية نبينا ﷺ لربه ليلة المعراج

انقسم العلماء فى هذا الموضوع ثلاثة مذاهب :

المذهب الأول : ينكرون حدوثها.

المذهب الثانى : يثبتونها مع اختلاف فى آلتها : أهى العين أم القلب ؟

المذهب الثالث : التوقف وعدم الحكم . وهاك التفصيل :

المذهب الأول :

وعلى رأسه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فهى تقول لمسروق : ثلاث من تكلم بواحدة منهن . فقد أعظم على الله الفرية . قلت ما هن ؟ قالت من زعم أن محمد ﷺ رأى ربه . فقد أعظم على الله الفرية . قال: وكنت متكئاً فجلست فقلت يا أم المؤمنين أنظرينى ولا تعجلينى .ألم يقل الله عز وجل :﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ ؟ {النجم}. فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال إنما هو جبريل لم أره على صورته التى خلق عليها غير هاتين المرتين . رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظمُ خلقه ما بين السماء الى الأرض . فقالت أولم تسمع أن الله يقول :﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ {الأنعام } أولم تسمع أن الله يقول :﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ ؟ {الشورى}.

قالت ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ {المائدة/٦٧}.

قالت ومن زعم أنه يخبر بما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية والله يقول: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ {النمل/ ٦٥}[1] ونلاحظ من الحديث أنها تصف من أثبت الرؤية بالكذب وأنه بمنزلة من أعتقد أن محمداً ﷺ كتم شيئاً مما أوحاه الله إليه . وفى درجة من أدعى علم الغيب .

وتفسر قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾؟ {النجم} بأن معناه : رأى محمد جبريل ، وتستدل على رأيها بآيتين :

الأولى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ وتفسر الإدراك بالرؤية .

الثانية : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ ﴾ فإذا كان لا يكلم البشر إلا بحالة من هذه الحالات فكيف يراه محمد ﷺ ؟

المذهب الثانى:

وعلى رأس المثبتين للرؤية ابن عباس فهو يقول « رآه بفؤاده مرتين »[2] ونميل إلى هذا المذهب لأمور :

١- أن حادث الاسراء والمعراج كان فى مكه وكانت عائشة رضي الله عنها أنذاك صغيرة وقد قال معمر بن راشد : ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس ولما سأل المسرورى أحمد بن حنبل بأى شئ ندفع قول عائشة : قال يقول النبى ﷺ : (رأيت ربى) وقول النبى ﷺ أكبر من قولها .

---

(١) رواه مسلم فى الايمان ١٥٨/١ (٢) الموضع السابق . والمراد أن الفؤاد صار آلة للإبصار كالعين وليس المراد الرؤية العلمية . فليست محل خلاف .

٢ - عائشة تنفى وابن عباس يثبت والمثبت مقدم على النافى وقد صحت الروايات عن ابن عباس بإثبات الرؤية فيجب إثباتها لأنها ليست مما يدرك بالعقل، ويؤخذ بالظن والإجتهاد . وإنما مما يتلقى بالسمع من المعصوم ﷺ .

٣ - عائشة لم تنف الرواية بحديث سمعته من رسول الله ﷺ : ولو كان عندها حديث لذكرته .

٤ - اعتمدت عائشة فى رأيها على تأويل قوله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ وقد سبق بيان أن نفى الإدراك لا يدل على نفى الرؤية ، فقد تحدث بدون إحاطة .

٥ - كما استدلت بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ ﴾ لكن يجوز أن تحدث الرؤية من غير كلام .

المذهب الثالث :

التوقف عن الجزم بأحد الرأيين لعدم وجود دليل قاطع . وخاصة أنها مسألة عقدية ، وليست عملية فقهية . يكتفى فيها بالأدلة الظنية ، بل لابد من الأدلة اليقينية القطعية .

الفصل الثامن

الإيمان بالقضاء والقدر

القضاء في القرآن الكريم :

وردت مادة (القضاء) في القرآن في (٦٣) موضعًا تدور حول عدة معان منها :

١ - جاءت بمعنى **الإرادة** . قال تعالى : ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [آل عمران] أي إذا أراد أمراً .

٢ - وجاءت بمعنى **الحكم**. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ [غافر/ ٢٠] أي : يحكم وقال سبحانه : ﴿ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ [يونس/٤٧] أي : حُكِم .

٣ - وجاءت بمعنى **الخلق** . قال تعالى : ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت/١٢] أي : خلقهن .

٤ - وجاءت بمعنى **الأداء**.قال تعالى:﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[النساء/١٠٣] وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ ﴾ [البقرة/ ٢٠٠] أي : أديتم .

٥ - وجاءت بمعنى **الإخبار** . قال تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص/٤٤] أي أخبرناه .

٦ - وجاءت بمعنى **الإتمام والإكمال** . قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾ [القصص/٢٩] أي أتمه. وقال تعالى:﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾[الأنفال/٤٢] أي : يتمه .

٧ - وجاءت بمعنى **الموت أو القتل**. قال تعالى : ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ {القصص/١٥} أي : قتله . وقال تعالى : ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ {الزخرف/٧٧} أي : يميتنا .

٨ - وجاءت بمعنى **التقدير والتحديد** . قال تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ {مريم} أي أمراً مقدراً محدداً . وقال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ {مريم} وقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ {الأنعام/٢} .

القدر في القرآن الكريم :

وردت مادة (القدر) في القرآن في (١٣١) موضعاً .تدور حول عدة معان منها :

١ - وردت بمعنى **العظمة والشرف** . قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ {القدر} وقال سبحانه ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ {الأنعام/ ٩١} أي : وما عظموه .

٢ - ووردت بمعنى **التضييق** . قال تعالى : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ {الأنبياء/٨٧} أي أن لن نضيق عليه . وقال ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ {الرعد/٢٦} وقال: ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ ﴾ {الفجر/١٦} أي : ضيق .

٣ - وورت بمعنى **العلم** . قال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ {الحجر} أي : علمنا .

٤ - ووردت بمعنى **القدرة**. قال تعالى: ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ {المرسلات} وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ ﴾ {البلد} .

٥ - ووردت بمعنى **المقدار** . قال تعالى : ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ {الطلاق} وقال : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ {القمر} وقال : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾ {الحجر} .

٦ - وجاءت بمعنى **القضاء والكتابة** فى اللوح المحفوظ . قال تعالى : ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾ {الأحزاب} وقال : ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢﴾ {القمر} وقال : ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ {الواقعة/ ٦٠} وقال : ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ۝٤٠﴾ {طه} .

تعريف القضاء والقدر :

القضاء : إرادة الله تعالى للأشياء فى الأزل حسب علمه ، وكتابته ذلك فى اللوح المحفوظ .

والقدر : ايجاده تعالى للأشياء طبقًا لما علمه أزلاً وأراده .

فالقضاء فى الأزل ، والقدر فيما لايزال ؛ لأن القضاء وجود جميع المخلوقات فى اللوح المحفوظ مجتمعة ، والقدر وجودها فى أوقاتها التى حددها الحق لها بأوصافها ومقاديرها وشروطها .

والإيمان بالقضاء والقدر يتضمن الأمور التالية :

١ - الإيمان بعلمه تعالى بما سيكون قبل أن يكون .

٢ - الإيمان بمشيئته العامة ، وإرادته الشاملة لكل الموجودات .

٣ - الإيمان بكتابته كل شىء فى اللوح المحفوظ .

٤ - الإيمان بإيجاده تعالى لكل المخلوقات حسب علمه، وإرادته ، وكتابته.

حكم الايمان بالقضاء والقدر :

الإيمان بالقضاء والقدر واجب ؛ لأنه الركن السادس من أركان الإيمان التى حددها الرسول - ﷺ - عندما أجاب جبريل عن معنى الإيمان . ومن الآيات القرآنية التى تشير إلى القضاء والقدر وكتابته فى اللوح المحفوظ :

- ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿١٢﴾ ﴾ { يس } .
- ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكْنُونٖ ﴿٧٨﴾ ﴾ { الواقعة } .
- ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٖ مَّحْفُوظِۭ ﴿٢٢﴾ ﴾ { البروج } .
- ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ {التوبة/٥١} .
- ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ {الحديد/٢٢} .

ومن الأحاديث النبوية التى تبين ضرورة الايمان بالقضاء والقدر .

١ - قال عبادة بن الصامت لابنه : يابنى إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك . سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب. قال : رب وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » يابنى إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من مات على غير هذا فليس منّى » رواه أبو داود .

٢ - عن عبد الله بن عمر قال . قال رسول الله - ﷺ - : « كل شيء بقدر حتى العجز والكيس » رواه مسلم العجز : الضعف ، والكيس : النشاط.

٣ - عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا

رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك ، فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بكتب أربع كلمات : بكتب رزقه، وأجله ، وعلمه ، وشقى أو سعيد . فوالله الذى لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخلها ، وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها » متفق عليه .

٤ - وعن أبى العباس عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : كنت خلف النبى ﷺ فقال : ياغلام ، أعلمك كلمات . احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء . لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك . وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء ، لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام ، وجفت الصحف » رواه الترمذى .

الرضا بالقضاء والقدر :

إذا كان المسلم مأموراً بالإيمان بقضاء الله وقدره ، فهل يستلزم ذلك الرضا بكل ما قضى الله وقدر ، ومنه الكفر والمعاصى ، والآثام والشرور ؟

ونجيب بأن القضاء له جهتان :

الأولى - كونه فعل الله ومنسوبًا إليه ، وهو من هذه الجهة كله خير وعدل وحكمة . فإذا نظرنا إلى هذه الجهة ، وجب أن نرضى بالقضاء كله ، مع مافيه من كفر ومعصية ؛ لأن ذلك من آثار الأسماء الحسنى ، ومستلزمات الصفات العليا .

الثانية - كونه فعل العبد اختياراً واكتساباً . وهو من هذه الجهة ينقسم قسمين ، قسم ترضى به ، وقسم لاترضى به .

فنرضى بالإيمان والطاعات ، والمصائب التى ليست ذنوبًا من فقر ، ومرض، وابتلاء .

ونسخط ونكره الكفر والمعاصى ، ونبغض كل المنكرات ، ولانرضى عنها.

هل يجوز الاحتجاج بالقدر :

الاحتجاج بالقدر منه ماهو جائز شرعًا ، ومنه ماهو ممنوع :

أولا - الاحتجاج الجائز:

يجوز الاحتجاج بالقدر فى الحالات التى لايكون فيها إبطال للشرع ، ولامعارضة له . وذلك بأن يكون الاحتجاج بالقدر بعد وقوع الذنب ، وبعد التوبة منه ، فيكون فى ذكر القدر عندئذ اعتراف به ، وتثبيت للإيمان به ، فيكون من باب الإخبار بالواقع فقط .

ومن هذا النوع ماروى فى الصحيح : « عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : حاج آدم موسى فقال : أنت الذى أخرجت الناس من الجنة وأشقيتهم ؟ قال : فقال آدم لموسى : أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه أتلومنى على أمر كتبه الله علىَّ قبل أن يخلقنى ؟ أو قدَّره علىَّ قبل أن يخلقنى؟ قال رسول الله ﷺ : فحج آدم موسى » .

هنا أقر سيدنا محمد احتجاج آدم بالقدر ، وحكم له بمحاجة موسى ؛ لأن احتجاج آدم بالقدر كان بعد وقوع المعصية ، وبعد التوبة منها . قال تعالى : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه] .

ولبس فى احتجاج آدم بالقدر معارضة للشرع .

ومن هذا النوع أيضًا احتجاج عليّ بن أبى طالب بالقدر فى ترك قيام الليل، عندما طرقه رسول الله - ﷺ - هو وفاطمة ليلاً ، فقال : ألا تصلون فقال عليّ : يارسول الله ، إنما أنفسنا بيد الله . فإن شاء أن يبعثها بعثها ، فانصرف رسول الله - ﷺ - ولم يرجع إليه شيئًا ، وأخذ يضرب فخذه ويقول : « وكان الإنسان أكثر شىء جدلاً » .

فعلى رضى الله عنه لم يحتج بالقدر على ترك واجب ، ولافعل محرم . إنما قال : إن نفسه ونفس فاطمة بيد الله ، فإذا شاء أن يوقظهما ويبعث أنفسهما بعثهما . وهذا موافق لقول رسول الله ﷺ ليلة ناموا فى الوادى : « إن الله قبض أرواحنا حيث شاء ، وردها حيث شاء » وهذا احتجاج صحيح . صاحبه يعذر فيه ، فالنائم غير مفرط ، واحتجاج غير المفرط بالقدر صحيح .

وقد أرشد النبى - ﷺ - إلى الاحتجاج بالقدر فى الموضع الذى ينفع الاحتجاج به . فعن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كلٍ خير . احرص على ماينفعك، واستعن بالله ، ولا تعجز ، وإن أصابك شىء ، فلا تقل : لو أنى فعلت . لكان كذا وكذا، ولكن قل : قدر الله . وماشاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان ».

ثانيًا - الاحتجاج الممنوع :

هو الاحتجاج بالقدر فى حال ارتكاب الذنب ، والإصرار عليه ، أو فى حال العزم على فعله فى المستقبل، أو فى حال ترك الأمر الواجب، أو العزم على تركه.

ومن هذا النوع احتجاج المشركين والكفار بالقدر تبريراً لشركهم وكفرهم ، وقد ذكر القرآن زعمهم ، واستنكر صنيعهم . قال تعالى : ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الانعام] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزخرف] .

هكذا أنكر الله عليهم احتجاجهم بالقدر ، وزعمهم أن مشيئة الله الشرك تدل على رضاه منهم ، فعارضوا الشرع بذكر القضاء والقدر ، ولم يذكروه على جهة الإقرار به ، والإذعان له .

وقد احتج سارق على عمر رضى الله عنه بالقضاء والقدر . وقال : أنا سرقت بقضاء الله وقدره . فقال عمر : وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره .

فوائد الإيمان بالقضاء والقدر :

١ - لقد كان إيمان المسلمين بعقيدة القضاء والقدر سبباً فى تقدمهم فى جميع مجالات الحياة ، حتى سادوا الدنيا كلها فى مدة وجيزة أشبه ماتكون بالأحلام ، ويوم أن ضعف الإيمان بعقيدة القضاء والقدر تأخر المسلمون ، وأصبح حالهم على مانراه الآن .

هذه حقيقة لابد من الإلمام بها ، والانتباه إليها ، والوقوف لدراستها .

إن إيمان المسلم بأن ماشاء الله كان ، وما قدر فعل ، وإيمانه بتحديد الآجال، وضمان الأرزاق ، وأنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها ، إن إيمانه بذلك دفعه إلى الإقدام والشجاعة ، والجرأة والبسالة ، فكان المسلمون رهبانا فى الليل ، فرسانا بالنهار ، لو أرادوا خلع الجبال لخلعوها !!

قيل لقتيبة بن مسلم : إنك توغلت فى أرض الترك ، والأيام على جناح طائر ، فقال : بثقتى بالله تقدمت ، وإذا انتهت المدة ، لم تنفع العدة !!

إن إيمان خالد بن الوليد بالقضاء والقدر هو الذى جعله يحقق هذه البطولات العظيمة ، وهذه الانتصارات الضخمة فى مدة قصيرة ، تشبه المعجزات ، فلا

مجال للخوف أو الجبن ، أو الفزع أو الحزن . فقول الحق : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ماكتب اللّه لنا ، هو مولانا ، وعلى اللّه فليتوكل المؤمنون ﴾ كان شعاره .

ورغم هذه الجسارة الفريدة من ابن الوليد لم يمت وسط المعارك ، إنما مات على فراشه وهو يردد قولته المشهورة : « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو رمية بسهم ، أو طعنة برمح، وهأنذا أموت على فراشي حتف أنفى ، فلا نامت أعين الجبناء »[١] .

٢ - وكان لعقيدة القضاء والقدر الأثر الواضح فى نبوغ علماء المسلمين فى فروع العلم المختلفة ، فماذا يمنع المسلم من أن يغامر ويلاحظ ، وأن يجرب ويختبر ، ويقضى الساعات الطويلة فى المعامل ، ووسط الأجهزة والمخابر ، ليكتشف سنن اللّه فى كونه بعزيمة قوية ، لاتعرف التردد ، لإيمانه بأن أمر المؤمن كله خير ؛ كما قال ﷺ : « عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له »[٢] .

وكان نتيجة ذلك أن ظهر أمثال : (جابر بن حيان) فى مجال الكيمياء ، فهو أول من استحضر حامض الكبريتيك ، واكتشف حامض النيتريك ، والصودا الكاوية ، واستخدم ثانى أوكسيد المنجنيز فى صناعة الزجاج .

وأمثال (الحسن بن الهيثم) أستاذ البصريات الذى ألف فى الرياضة خمسة وعشرين كتابا ، وفى الطبيعة أربعة وأربعين كتابا.

وأمثال (البيرونى) الذى يقول عنه المستشرق الألمانى سخاو: « البيرونى أعظم عقلية عرفها التاريخ، فقد كان أديبا متعمقاً فى الرياضيات، والفلك ، والتاريخ »

---

(١) السيرة النبوية للشيخ عبد المقصود نصار ، والشيخ الطيب النجار ٤/ ٧٠.

(٢) رواه مسلم فى الزهد ٤/ ٢٢٩٥

وأمثال : ابن سينا فى الطب ، وابن البيطار فى الصيدلة ، والخازن فى الضوء ، واليوزجانى وابن يونس وعباس بن فرناس فى الفلك ، والخوارزمى وابن فضلان والمسعودى والمقدسى فى الجغرافيا والطيران .

وأمثال : موسى بن نصير أول من اخترع الدبابة ، وابن خلدون المؤرخ الذى أسس علم الاجتماع ، وعلم الاقتصاد .

٣ - وكانت هذه العقيدة سبباً فى الهدوء النفسى ، والطمأنينة القلبية ، فلم يظهر ما يسمى بالعقد النفسية ، أو الأمراض العصبية ، أو حوادث الانتحار ، وقارن ذلك بما تقرأه عن الدول الأوربية والأمريكية التى تدعى الحضارة والعصرية .

إن المسلم بإيمانه بهذه العقيدة نراه متفائلا دائماً ، راضياً بما قسم ، لايعرف التشاؤم سبيلا إلى قلبه، ولا اليأس طريقا إلى نفسه ، ولايملك التحسر على ما فاته من أمور الدنيا عليه كيانه ، فيشل حركته ، ويميت نشاطه ؛ لأنه يضع نصب عينيه قوله تعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦ ﴾ [البقرة] .

٤ - والإيمان بعقيدة القضاء والقدر يدفع المسلم لأن يكون كريما سخيا جواداً ودوداً ، ولهذا أثره فى تكافل المجتمع وتماسك كيانه .

الإنسان مخير أم مسير :

كان رسول الله - ﷺ - يكره المراء فى الدين ، والجدال بين المسلمين ، خاصة فى المسائل العويصة التى تضيع الوقت ، وتبدد الجهد ، وتفرق الجمع ، ولا يتسنى للعقل البشرى أن يقول فيها القول الفصل ، والرأى الذى لاينقضه رأى ؛ لأنها فوق مستواه ، وأعلى من مداه .

ومن هذه المسائل مسألة القدر، أو الإنسان مخير أم مسير، مجبر أو مختار؟

وقد جاءت أحاديثه الشريفة تبين ذلك :

- عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم ، وهم يتراجعون فى القدر ، فخرج مغضبًا حتى وقف عليهم فقال : « ياقوم بهذا ضلت الأمم قبلكم ، باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضًا ، ما عرفتم منه ، فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به » رواه الإمام أحمد.

- وعن أبى هريرة قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع فى القدر فغضب حتى احمر وجهه ، حتى كأنما فقىء فى وجنتيه الرمان ، فقال : « أبهذا أمرتم ؟ أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه » رواه الترمذى .

- وقال عليه الصلاة والسلام : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل . ثم قرأ : « ما ضربوه لك إلا جدلاً ، بل هم قوم خصمون » رواه الترمذى .

هكذا كانت توجيهاته ﷺ ؛ لأن هذه المسألة من المسائل التى تحير العقول، وقد تحيرت العقول فعلا ، فتعددت فيها المذاهب ، وتباينت فيها الآراء ، وهى فى جملتها تكاد ترجع إلى رأيين :

أولا - رأى الجبريين :

وهم يرون أن الإنسان مجبر فى أفعاله ، لا إرادة له ولا اختيار ، ولا قدرة، إنه أشبه بالريشة المعلقة فى الهواء ، تحركها الرياح كيف تشاء .

واستدلوا على رأيهم بالعقل قالوا : لو كان للإنسان قدرة واختيار فى خلق أفعاله ، لكان شريكًا لله فى الخلق ، وهذا مستحيل .

واستعانوا ببعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ {الأنعام }.

وقوله سبحانه: ﴿ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ {الانعام} .

ثانيًا - رأى الاختيارين :

وهم يرون أن الإنسان مختار فى أفعاله الاختيارية بخلاف الاضطرارية التى لادخل له فيها ، وله القدرة على تنفيذ ما اختاره وأراده .

واستدلوا على رأيهم بالعقل فقالوا : لو لم يكن العبد مختاراً ، وله قدرة على الفعل والترك، لكان تكليفه بالشرع عبثًا من الله، والله منزه عن العبث، ولما استحق الإنسان المدح أو الذم على أفعاله ، والثواب أو العقاب عليها .

واستعانوا ببعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ {الكهف/٢٩} .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ {الزلزلة} .

وعرض المشكلة بهذه الصورة لايمكن أن يوصل إلى الرأى الذى يطمئن إليه القلب ، ويقنع به العقل .

وتأمل ما يقوله الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله :

« لقد شغلت مسألة القدر ، أو الجبر والاختيار ، أو أفعال العباد عقول الإنسانية منذ أن كان الدين ، أى منذ ابتداء تاريخ الإنسان على ظهر الكرة الأرضية .

وإذا أثيرت مسألة القدر فى أى وسط كان - مهما كان قليل العدد - فإنها تقسمه إلى قسمين : يقول أحدهما بالجبر ، والآخر يقول بالاختيار .

لقد أثارها اليهود فى دينهم ، ففرقت بينهم ، وقال بعضهم بالجبر ، وقال الآخرون بالاختيار .

وأثيرت فى الديانة النصرانية على مجرى التاريخ ، فكان النزاع ، وكان الجدل ، وكان التحيز لرأى والتعصب له ، وانقسم رجال المسيحية إلى فريقين يختصمان .

وأراد رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - أن يتلافى انشقاق الأمة بسبب إثارة هذه المشكلة ، فكان ينهى دائمًا عن إثارتها ، وعن الجدال فيها .

ومضى رسول الله ﷺ راضيًا مرضيًا ، وهو لايسمح حتى النفس الأخير من حياته الشريفة بأن تثار هذه المسألة .

ولم تثر هذه المسألة فى عهد سيدنا أبى بكر لانشغال المسلمين بتوطيد دعائم الأمة الإسلامية منصرفين بذلك عن العبث فى دين الله .

وكانت درة سيدنا عمر كفيلة برد كل من تحدثه نفسه بإثارة هذه المشكلة إلى جادة الصواب .

ومسألة القدر إذن من المتشابه ، إنها من أهم مسائل المتشابه .

وهى فضلا عن ذلك عصية على الحل ، إنها ليست قابلة للحل ، وهى ليست قابلة للحل سواء أثيرت فى الشرق أو الغرب ، وسواء أثيرت فى القديم أو الحديث ، أو أثيرت فى البادية أو فى الحضر ، إنها مُفَرِّقة بين الباحثين فيها ، ومهما طال الجدل ، فسوف لاينتهون إلى نتيجة ، ومن أجل ذلك كانت الروح الإسلامية العامة تحرم الخوض فيها .

ومع ذلك فقد بدأت هذه المشكلة تتسلل شيئًا فشيئًا الى المجتمع الإسلامى، حتى لقد احتلت يومًا ما مركز الصدارة فى الفكر الإسلامى النظرى .

ولقد مهدت السياسة أولا لهذا التسلل ، وكانت السياسة أول عامل من عوامل إفساد التفكير النظرى الدينى فى المجتمع الإسلامى السليم » .

هكذا وضح لنا أن هذه المسألة من الناحية العقلية :

* عصية على الحل .
* مضيعة للوقت .
* مبددة للجهد .
* مفرقة للجمع .

أما الآيات القرآنية فيجب أن تفهم على ضوء أن الإنسان يحيا بين جبر واختيار وأن الخالق قد منحه إرادة بها كان التكليف ، وعليها يكون الجزاء ، ولايعنى أن الله يعين الإنسان على اختياره عدم مسئوليته عما يفعل .

ويحدث الخطأ فى فهم الآيات القرآنية عندما تؤخذ آية ، وتغفل أخرى ، أو يستدل بجزء من آية ، ولا يلتفت إلى باقيها . ومن المعلوم أن القرآن يفسر بعضه بعضًا .

فإذا أردنا أن نفهم مثلا قوله تعالى : ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾ {الزمر/٣٦-٣٧} . فلابد أن يكون فهمنا لهذه الآية فى ضوء الآيات الأخرى :

فنفهم قوله تعالى: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ فى ضوء قوله تعالى:

- ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ {ابراهيم} .
- ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ {غافر} .
- ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ {غافر} .

ونفهم قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾ فى ضوء قوله تعالى:

- ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ {محمد} .
- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ {يونس/٩}
- ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ {مريم/٧٦} .

وإذا أردنا أن نفهم قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ {الأنعام/١٢٥} فعلينا أن نتنبه إلى نهاية هذه الآية، وهى قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ فعدم إيمانهم ، ورفضهم الإسلام باختيارهم ، كان السبب فى جعل الرجس عليهم ، فكان الضيق والحرج فى الصدور نتيجة لذلك .

بهذا القدر يجب أن تبحث مسألة الجبر والاختيار ، أو الإنسان مخير أم مسير، ولاداعى للتنطع ، والتقعر طالما أن هذه المسألة عصية على الحل العقلى المجرد .

ولذلك لما جاء رجل إلى سيدنا عليٍّ بن أبى طالب يقول : يا أمير المؤمنين. أخبرنى عن القدر . قال : طريق دقيق . لاتمشِ فيه . قال : يا أمير المؤمنين ، أخبرنى عن القدر . قال : بحر عميق . لاتخض فيه . قال : يا أمير المؤمنين ، أخبرنى عن القدر . قال : سرٌ خفى لله لا تُفشه .ويقول الإمام عليٌّ رضى الله عنه : « إن الله أمر تخييراً ، ونهى تحذيراً ، وكلَّف تيسيراً ، ولم يُعصَ مغلوبًا ، ولم يُرسل الرسل إلى خلقه عبثًا ، ولم يخلق السموات والأرض باطلاً ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار ».

وقال الإمام أبو حنيفة عن القدر : « هذه مسألة قد استعصت على الناس، فأنى يطيقونها . هذه مسألة مقفلة ، قد ضل مفتاحها » .

ويقول الإمام جعفر الصادق رحمه الله : « إن الله تعالى أراد بنا شيئًا ، وأراد منا شيئًا ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراده منا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا » .

ويقول : « الناظر فى القدر كالناظر فى عين الشمس ، كلما ازداد نظراً ازداد حيرة » .

وعن وهب بن منبه أنه قال : « نظرت فى القدر فتحيرت، ثم نظرت فيه فتحيرت، ووجدت أعلم الناس بالقدر أكفهم عنه ، وأجهل الناس بالقدر أنطقهم به ».

ونختم هذا البحث بحديث لسيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول فيه:

« إذا ذكر القدر فأمسكوا » رواه الطبرانى ، ورمز له السيوطى بالحسن .

هذا التوجيه النبوى الشريف هو الفصل - فيما نرى - فى مسألة (الإنسان مخبر أم مسير) والله أعلم .

الفهـــرس

الموضــــــوع	الصفحة
المقدمـــة	٣
الفصل الأول - الإيمان بالملائكة	**٥ - ٢٢**
حكم الإيمان بالملائكة	٥
خلقهم وطبيعتهم	٥
عددهم وأشهرهم	٨
أصناف الملائكة	١٠
الوحى : معناه ، طرقه	٢٠
الفصل الثانى - الإيمان بالجن	**٢٣ - ٤٠**
الجن والشياطين فى اللغة	٢٣
الجن والشياطين فى القرآن الكريم	٢٤
خلق الجن وطبيعتهم	٢٥
من أعمال الشيطان	٣٥
نصائح نبوية	٣٨
الفصل الثالث - الإيمان بالكتب السماوية	**٤١ - ٤٨**
حكم الإيمان بها وأشهرها	٤١
تحريف الكتب السابقة	٤٢
إعجاز القـرآن الكريم	٤٤
أوجه اعجاز القرآن الكريم	٤٥
الفصل الرابع - الإيمان بالرسل	**٤٩ - ٩٥**
حكمة إرسال الرسل	٤٩
اتفاق واختلاف الرسالات	٥٠

الموضوع	الصفحة

تعريف الرسول والنبى ٥١
عدد الرسل والأنبياء وأولو العزم ٥٢
صفات الرسل وعلاماتهم ٥٣
شبهات حول عصمة الأنبياء ٦٣
أدلة نبوة سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم ٧٠
ختم النبوة به صلى الله عليه وسلم ٨٠
عموم بعثته للإنس والجن ٨٠
دفاع الله عن نبيه محمد ٨٢
تعظيم الله لسيدنا محمد ٨٧
نبينا ﷺ أفضل الخلق ٩٢

الفصل الخامس - الأولياء ٩٧ - ١٠٥

تعريف الولاية والولى ٩٧
تعريف الكرامة وحكمها ٩٩
أنواع الفراسة ١٠١
من كرامات الأولياء ١٠٣

الفصل السادس - أشراط الساعة ١٠٧ - ١١٩

معناها وأنواعها ١٠٧
توضيح بعض العلامات الكبرى (الدخان) ١١٠
المسيح الدجال ١١١
دابة الأرض ١١٤
طلوع الشمس من مغربها ١١٥
نزول عيسى عليه السلام ١١٦
يأجوج ومأجوج ١١٨

الفصل السابع : اليوم الآخر ١٢١ - ١٥٣

مقدمة عن حياة البرزخ ١٢١
أولاً - إمكان البعث ١٢٣
ثانيًا - النفخ فى الصور ١٢٦
ثالثًا - الحوض ١٢٨
رابعًا - الحشر ١٣٠
خامسًا - الشفاعة ١٣٢
سادسًا - صحف الأعمال ١٣٥
سابعًا - الحساب ١٣٦
ثامنًا - الميزان ١٣٩
تاسعًا - الصراط ١٤١
عاشراً - الجنة والنار ١٤٤
حادى عشر - رؤية الله تعالى ١٤٩

الفصل الثامن - الإيمان بالقضاء والقدر ١٥٧- ١٧٢

القضاء والقدرفى القرآن الكريم ١٥٧
تعريف القضاء والقدر ١٥٩
حكم الإيمان بالقضاء والقدر ١٦٠
الرضا بالقضاء والقدر ١٦١
هل يجوز الاحتجاج بالقدر ١٦٢
فوائد الإيمان بالقضاء والقدر ١٦٤
الإنسان مخير أم مسير ١٦٦